زيارة إلى الأرض المقدسة

يندريخ هافليك

ترجمة: برهان القلق

الإهداء

إلى أخي عز الدين
ما زال ناسنا بتوقهم إلى الحرية يماحكون التعب..
يعايشونه مضضاً ورغبة.
كل صباح يرتدي إنسان جديد من هذا العالم الكبير
الصغير روحك.
صاحب هذا العلم واحد منهم..
سيزهر شجر اللوز لا محالة
سلام عليك
قُرَّ عيناً

برهان

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

* متابعات زيارة للأرض المقدسة 4
* بدلاً من المقدمة 7
* حيفا بعد الظهر (1998م) 8
* من يكون من؟ 10
* عيد 13
* اِنس من تكون 18
* ليلة بلا قمر 22
* هدوء في الضفة الغربية 27
* شجرة الزيتون والقبر 31
* اقتلاع الأشجار 38
* عكّا 43
* نجمة من بيت لحم 46
* قهوة الوداع 48
* إلى البيت بالباص 51
* القدس 54
* فيا دولوروسا درب الآلام 61
* لقاء ليلي 65
* وراء الكواليس 68
* مساء 2001 في سيتي غاردن 72
في الطريق من يعبد 73
* مهاودة من أجل السلام. 78
* رسوم للمؤلف في موضوع الكتاب .....

متابعات

زيارة للأرض المقدسة

شريط المأساة الفلسطينية في مؤلف تشيكي جديد

ما نقلته صور وتقارير وكالات الأنباء.. تصوراتنا العامة حول العيش تحت نير الاحتلال.. وكذلك ما نشرته منظمات حقوق الإنسان، كل ذلك لا يقارن بالانطباع المأساوي الذي تتركه في أعماق القارئ تلك الصور الحية من معايشات الفلسطينيين اليومية كما نقلها الصحفي التشيكي يندريخ هافليك في كتيبه ذي المئة ورقة من الحجم الصغير بعنوان (زيارة للأرض المقدسة).

وإذا كان لهذا العمل . المتواضع الحجم وليس الشأن . دور ملموس في التأثير في الرأي العام باتجاه معرفة الحقائق واتخاذ موقف أكثر توازناً وأقرب إلى العدالة، فإن هذا الدور شبه المغيب في إعلام أوروبا ما بعد الشيوعية طوال العقد الأخير لا يقتصر قطعاً على الرأي العام التشيكي أو الأوروبي، فمن الملفت للأنظار أن تحقيقات هافليك من «الأرض المقدسة» كفيلة بإعادة تشكيل الوعي العربي ذاته حول الاحتلال وبشاعته، على أساس أقرب إلى الواقعية والمنطق منه إلى العاطفية والشعارات الرنانة، كما هو الحال اليوم. فهناك قطاعات واسعة تسارع إلى الشوارع مرددة شعارات التضامن مع أشقائنا تحت الاحتلال في فلسطين أو الجولان أو الجنوب اللبناني، ولكنها تعبر بذلك من حيث لا تدري عن شقائها الذاتي ومتاعبها اليومية، كما أنّ هناك ساسة جعلوا من مأساة الاحتلال مادة للاستهلاك الإعلامي، ولكل هؤلاء أيضاً يتوجه هافليك من حيث لا يقصد ولا يدري قائلاً: تعالوا معي لنرى قمة البشاعة والتغطرس في القرن الحادي والعشرين، وانتهاك الديمقراطية وحقوق الإنسان، تعالوا نطلع عن كثب على المأساة اليومية لشعب أعزل يدفعه الدوران نصف قرن في حلقة مفرغة إلى دائرة اليأس والإحباط.

عبر تحقيقات هافليك يتعرف القارئ التشيكي أو الأوروبي للمرة الأولى على حقائق مثيرة للغاية عن إسرائيل . واحة الديمقراطية في وسط صحراء التسلط العربي المقفرة . حسب المفهوم الدارج في الغرب. وبغض النظر عن وصف السياسة العربية بصحراء

مقفرة تخلو من الحرية، سرعان ما يدرك القارئ الأوروبي أن إسرائيل (الديمقراطية) تنطوي على ممارسات يومية واستراتيجية منافية تماماً للديمقراطية واحترام الحقوق الإنسانية. هذا ما ينطبق على الإسرائيليين من الدرجة الثانية، أو الثالثة، أي عرب إسرائيل، مسلمين كانوا أم مسيحيين أم دروزاً.

وتتضح أمام القارئ الأوروبي حقائق أخرى مثيرة حول الدولة العبرية ذاتها، فهذه في حقيقة الحال دولة مهاجرين لا تجمعها لغة مشتركة ولا ثقافة ولا تاريخ واحد. وتحاول إسرائيل إعادة كتابة التاريخ لحسابها الخاص بتزييف أسماء نزلاء القبور، وإدخال عناصر يهودية كيفما اتفق على الآثار الإسلامية والمسيحية والفينيقية والبيزنطية والرومانية واليونانية التي لا تدع مجالاً للشك بأن أرض فلسطين لم تكن على مر العصور حكراً لشعب مثلما لم تكن حكراً لعقيدة دينية واحدة.

وإذا كان الحال هكذا في إسرائيل ذاتها، فكيف يمكن أن تكون عليه الأمور في الأراضي التي تحتلها إسرائيل بالقوة. وتتلاحق المشاهد اليومية المؤلمة: نساء فلسطين يجبرن بذريعة منع التجول على الولادة في ديارهن دون مساعدة، فيلدن أطفالاً حكم عليهم مسبقاً بالموت.. شبكات الطرق في الضفة الغربية توحي بالسلام والازدهار، ولكن هافليك سرعان ما يكتشف حقيقة مذهلة: هذه الطرق المرصوفة بعناية فائقة تخدم سكان المستوطنات وجيش الاحتلال فقط، ولا يجوز لأصحاب الأرض والحق المشروع استخدامها. بل وتقسم هذه الطرق الأراضي الفلسطينية إلى جزر متفرقة يصعب الانتقال فيما بينها، كل ذلك يجري بالطبع تكريساً للاحتلال، ومنعاً لقيام أي كيان فلسطيني، سياسياً كان أم اقتصادياً أم ثقافياً. مدن الضفة لا تتلقى مياه الشرب إلا مرة واحدة في الأسبوع.

ومرة أخرى لم تترك السياسة الصهيونية حليفاً واحداً محتملاً. فقد سرقوا قبور الشيوخ الفاضلين من المسلمين، وهدموا القرى المسيحية، ومنعوا حتى عملاءهم العرب ساعة الجد من توسيع ديارهم استعداداً لاستقبال مواليد جدد لمجرد أن الدماء التي تجري في عروقهم هي دماء عربية. ولكن هافليك يكتشف أيضاً أن الكيان الفلسطيني قائم رغم كل شيء، وأبرز أشكاله هو ذاك الوعي بالذات الذي تتوارثه الأجيال الفلسطينية

المتعاقبة منذ نكبة 1948م، بل أن الاحتلال وسياسة التمييز التي تنتهجها الدولة العبرية تعمق هذا الوعي حتى بين فلسطيني إسرائيل..

وفي كتيب هافليك يصعب العثور على شعار سياسي واحد من تلك الشعارات الجادة والمشروعة، أو تلك المخصصة للاستهلاك الإعلامي والتنفيس عن غضب الشارع العربي. إنه شريط لا ينتهي من الحزن اليومي. ولقد حرص مؤلفه وفق شتى المؤشرات، على التزام أكبر قدر من الموضوعية وتجنب استفزاز القارئ البسيط بالكليشات السياسية المثيرة للنفور. بل إن هافليك حرص أيضاً على عدم منح خصومه هنا، وهم كثيرون بالطبع، أدنى ثغرة للحيلولة دون وصول عمله إلى القارئ التشيكي، كأن يتهم مثلاً بمعاداة السامية، وهو المدخل القانوني والسياسي التقليدي لمهاجمة، وحتى حظر، أي عمل يسلط الضوء على حقيقة القضية الفلسطينية نضالاً لشعب أعزل في سبيل حق مشروع بوجه ترسانة هائلة من السلاح، وليس نزاعاً بين طرفين على قدم المساواة، مثلما تحاول الدعاية السائدة تصويره، مع ذلك تفيد معلومات غير رسمية بأن أوساطاً تشيكية معينة تعد العدة لوقف توزيع «زيارة للأرض المقدسة».

بابيلون

بدلاً من المقدمة

كانون الثاني (يناير) 2002، تفوح رائحة النرجيلة في الغرفة احتفالاً بذكرى زيارتي الأولى إلى الأرض المقدسة، البرد يطرق على النافذة، ها قد مضى على ذلك الوقت أربع سنوات، حينما جلست على مقعد تحت شجيرة الدِّفْلى، أتابع الحياة النابضة في تلك المدينة الساحلية حيفا. أربع سنوات مرت بسرعة، حيث عُدت إلى هناك ثلاث مرات في سنوات أربع، مليئة بحكايات غير مألوفة، وذكريات مُمَيَّزة، خلفت لي الكثير من الأوراق المكتوبة، دونت فيها كل جديد ومفاجئ، ومن الملاحظات التي جمعتها خلال تجوالي في تلك البلاد القريبة البعيدة، ظهر أخيراً هذا الكتاب.

أنظر أمامي وبدلاً من محور المقدمة، الذي كان يجب عليّ التقيد به لم أستطع التفكير بأي شيء آخر سوى الإطلاع على أخبار الصحف اليومية، ما كان قد بدا، قبل سنوات، غير ممكن، أصبح اليوم حقيقة محزنة. يا لها من مفارقة، كيف يصْعُبُ على المرء أحياناً، أن يبدأ، يبدأ بالفهم، بالنقاش، بالتسامح.. أن أخط تقديماً لكتاب هي مسألة صعبة عليّ، إنها أكثر من شيء رمزي، صعبة كصعوبة ألاّ أفكر اليوم بأناس فتحوا لي أبوابهم، خلال أربعة أعوام، ليس ذلك فقط، بل كشفوا لي عن خصوصياتهم، معاناتهم وأفسحوا لي المجال لاستعراض قضايا ليس بالإمكان الكتابة عنها.

بدل المقدمة أفكر بكم أصدقائي في حيفا، غزة، تل أبيب، وفي الضفة الغربية.

حيفا بعد الظهر (1998)

بعد ظهر يوم حار، وجدت نفسي، ولو لفترة وجيزة، وحيداً في شوارع مركز المدينة الصاخبة، حيث إن معارفي كانوا قد ابتعدوا عني لبعض الوقت، وهكذا تتوافر لي الفرصة الوحيدة لأتابع السكان المحليين بهدوء. كنت قد درست النشرات السياحية عن إسرائيل، ولم يبق لي إلاَّ أن أقارنها بالواقع، وأن أتعرف عن قرب على الناس الذين سأقضي بينهم أسابيع قادمة. للوهلة الأولى، لا ألاحظ شيئاً يختلف عما عرفته في بلدي. الناس يسرعون بمحافظهم للتبضع، يثرثرون في زاوية الشارع، يبتسمون عند لقاء يجمعهم أمام المتجر مصادفة. أميز بصعوبة مَنْ مِنَ المارة يهودي، ومَنْ هو عربي، وحتى لو اعتبر هذا القول عداء للسامية فإنني أستخدمه، حيث ليس من السهل على أجنبي أن ينجح في هذه المهمة. إن الطرفين ينحدران من الشعوب السامية، يتضح هذا الأمر من النظرة الأولى، وقد يبدو أمراً غير قابل للتصديق أن بعضهم يشبه الآخر كما تشبه بيضة، بيضة أخرى، لكنها الحقيقة. إذا عِشْتَ منذ الولادة في إسرائيل، فستتعلم كيف تميز الناس بعضهم من بعض، فمثلاً يستوقف الجنود الإسرائيليون شاباً عابراً في محطة الباصات، فيعرفون من هيئته من ذاك الذي يُشرّفهم بطلعته، إذا لم يكونوا متأكدين فباستطاعتهم فحص وثائقه الشخصية، حيث قومية حامل البطاقة الشخصية مفصولة عن كل الوقائع الأخرى، ومدرجة في مكان يمكن ملاحظته بوضوح.

- «بطاقتك الشخصية».
- «شالوم، لحظة... هاكم إياها».
- «نعم عربي!.. إلى أين أنت ذاهب؟».
- «هنا، إلى الباص».
- «إلى أين تريد التوجه؟».
- «إلى بيتي».
- «وأين تسكن».
- «مذكور في بطاقتي أليس كذلك؟».
- «لا تكن وقحاً، وإلا فستذهب معنا».

- «إنني من الناصرة».
- «لماذا تريد الذهاب في هذا الوقت بالتحديد؟».
- «انتهى دوامي في المدرسة قبل قليل؟».
- «في أي ساعة؟».
- «الساعة الثالثة».
- «يعني قبل ساعة ونصف!، لماذا لم تأخذ الباص قبل ذلك؟».
- «لم يمر أي باص».
- «أين كنت خلال التسعين دقيقة تلك؟».
- «دخلت إلى المتجر».
- «ماذا تحمل في محفظتك؟».
- «طعاماً اشتريته»..

يشير الجندي بيده أنه يرغب في التأكد، يمكنه الوثوق لكنه لا يجب عليه ذلك، يقدم الشاب محفظته للجندي، بدوره يقوم الأخير بقلبها، تتساقط المحتويات كلها على الرصيف، لإنجاز مهمته بعناية تبعثر قدم الجندي المُغْبَرَّة محتويات المحفظة، ثم يلقي بها مع البطاقة الشخصية على الأرض. انتهى التفتيش الشخصي، يهز الشاب الفلسطيني الذي هو في مثل عمر الجندي الإسرائيلي برأسه، يقرفص جامعاً أشياءه، ثم يبتعد بينما الغضب يندلق من عينيه.

التفتيش والبدلات العسكرية، هي إحدى العلامات المميزة، فالأغلبية العظمى من الفلسطينيين لا تخدم في الجيش، وليس من المعتاد أن يتعرض لتفتيش مماثل شخص آخر غير العربي بالتحديد.

حيفا بعد الظهر، رائعة الجمال في عز الصيف، تَهُبُّ ريح من الجو منعشة. وبعد استراحة قصيرة على المقعد أحدس بأن مفاجآت تنتظرني في هذا المكان، لقد بدأت إجازتي الشهرية في إسرائيل.

* * *

من يكون من؟

منذ وصولي إلى المطار، استطعت التأكد من الحذر وقلة الثقة السائدة في المجتمع الإسرائيلي. فحقيقة كوني أجنبياً شكلت سبباً كافياً لتفتيش حقائبي بعناية، كل شيء يخضع للتفتيش هنا، ليس فقط حقائب السفر وحافظات المواد الغذائية، بل كما علمت، حتى خصوصيات جزء غير قليل من السكان المحليين. يمكن القول: إن التفتيش مرادف لإسرائيل، لكن تعريف هذا المرادف، ليس أمراً سهلاً، كما قد يبدو. إنه تماماً مثل صعوبة إيجاد قاسم مشترك لكل شيء هنا، وربما لا توجد في العالم كله دولة فيها تنوع في الآراء والوجوه، والفروقات الاجتماعية، مثل هذه الدولة. دليل ذلك يمكن أن يكون أيضاً مصطلح الشعب، الذي ينظُرُ إليه كل شخص هنا بشكل يختلف عن الآخر، كل بطريقته الخاصة، إسرائيلي يعني صاحب وجهة نظر خاصة به.

لو لم أكن أملك قبل وصولي إلى هذا البلد بعض المعلومات المتعلقة بالناس الذين يعيشون هنا، لكان من الصعب علي ضمان إمكانية تمييزهم، وببساطة إن لم يهيئ المرء تصوراته حتى قبل أن تطأ قدماه المطار في تل أبيب فهذا يعني أنه كمن يزور مونتمارتره ولا يدري من هو فان غوغ، ديفاس أو تولوس لاوتروس.

ومع ذلك، فاليهود ليسوا الوحيدين الذين يواجهون تعريف مقولة الشعب، بل الفلسطينيون المعاصرون مثلهم أيضاً، فمعظمهم لم يعودوا يعيشون في فلسطين، بل تشتتوا في معظم أنحاء العالم، الفلسطيني قبل غزو المهاجرين لفلسطين كان يعني في الأصل كل شخص عاش هنا وله جذوره هنا أيضاً، لا فرق سواء كان يهودياً، أم مسلماً أم مسيحياً.

لكن عندما وصلت مع القادمين الجدد إلى فلسطين فكرة التقسيم والتمييز، من يكون هذا وماذا يكون ذاك بدؤوا بالإشارة إلى كل العرب المحليين على أنهم الفلسطيني.

يُنظر إلى إسرائيل بشكل عام على أنها دولة يهودية، لكن لا يمكن اعتبار هذا الأمر ثابتاً، ففي الواقع لا يجب على الإسرائيلي أن يكون يهودياً أو مؤمناً بالديانة اليهودية وبالعكس، وفي نهاية المطاف لا يتوجب عليه أبداً أن يعيش في إسرائيل، ولكي لا يُعتبر ما قد أوردته قليلاً أقول: ليس كل إسرائيلي، مسجلٍ إدارياً يهودياً، هو كذلك حقاً.

باختصار أن تغوص في أسرار هذا المجتمع هو أمر يشابه التنجيم بحجر العراف، وهذا أمر زائد تماماً عن اللزوم لأجنبي يقضي هناك إجازته فقط، ولا يتوقع له اكتشاف أمور، لا يملك حتى الإسرائيليون تصوراً واضحاً عنها.

ومع ذلك فمن العملي أن تعرف من يكون من، أو على الأقل من عليك تحيته بكلمة شالوم ولمن تقول: السلام عليكم. إن ملاحظة صغيرة قد تكتسب قيمة هامة، كأن تجنبك أحياناً كثيرة سوء فهم ما عندما تطلب استشارة أو تساوم على السعر خلال قيامك بشراء شيء ما من السوق.

إن فرصة النجاح كبيرة نسبياً عندما تلقي التحية بالعبرية؛ لأن اليهود يشكلون 81% من السكان، ومع مرور الوقت الذي يمضي سريعاً، استنتج بأن من الأفضل ألاَّ أتكيف، فإن أضيف لتحيتي: «نهار سعيد». بلغتي التشيكية، هزة من الرأس يكون واضحاً لكل شخص ما الذي أريد قوله، كما أنني أشعر بالارتياح لعدم وقوعي بخطأ ما، إنني متفاجئ من كم الناس الذين يتفاعلون مع تحيتي التشيكية، رغم أنهم ليسوا من أبناء بلدي، يفهمني المحليون أيضاً؛ لأنهم إما كانوا قد درسوا عندنا أو أنهم يهود قد هاجروا من بولونيا أو سلوفاكيا أو الاتحاد السوفييتي السابق.

كيف تعيش هنا، كل هذه التجمعات البشرية المختلفة، هو أمر غير قابل للتصديق كما يبدو أحياناً، فإلى جانب اليهود الشرقيين والسفارديم، الذين يسهل الخلط بينهم وبين الفلسطينيين، يوجد قبل كل شيء الأوروبيون . غالبيتهم ألمان . الأشكناز، والفلاشا الأثيوبيون والروس وممثلو 123 شعباً، عثروا على صلة ما باليهودية أو ورثوها، وأحْضَرَ كل واحد منهم معه، من موطنه الأصلي، إلى جانب عاداته، لغته الخاصة به أيضاً، تسمع في الشوارع الإسرائيلية إلى جانب اللغتين الرسميتين العبرية والعربية 82 لغة يتكلمها أناس مختلفون جداً إلى الحد الذي يمكنك بصعوبة أن تصدق في وحدتهم القومية.

قال أحدهم: إن ما يجمع الإسرائيليين جواز سفر، والواقع أن لا شيء يربطهم بعضهم ببعض، ولهذا الكلام منطقه، فإسرائيل هي دولة مهاجرين تفتح أبوابها يومياً للكثيرين من أنحاء العالم، كل شخص يقدم دليلاً على صلته بالديانة اليهودية أو على أصل

يهودي لـه حق اكتساب الجنسية، وبالنظر لسرعة تزايد السكان الفلسطينيين يتأكد المهاجر من أنه سيُمنح الجنسية بسرعة ودون مشاكل.

التركيبة القومية للسكان، هي واحدة من المسائل التي يتعلق بها طابع دولة إسرائيل، وبسبب لا يهودية الفلسطينيين المحليين فإنهم ببساطة لا يتبعون لهذه التركيبة.

ولأن نسبة الولادة عند النساء العربيات هي الضعف تقريباً، فإن هذه الحجة كافية لتفسير هذا الترحيب بالمهاجرين الجدد الذين ببساطة لن يكون عددهم كافياً في أي وقت.

إليوشا واحد من المهاجرين الجدد تقريباً، التقيت به في إحدى حدائق حيفا، وعندما عرف من أي بلد أنا أسرَّ لي بلا تحفظ أنه ليس يهودياً. وجواباً عن سؤالي كيف نجح في الحصول على الجنسية اكتفى بالابتسام قائلاً: «عندما يُراد، كل شيء يصبح ممكناً».

إنه من الروس، الذين كانوا قد هاجروا بشكل جماعي في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، وقد وصل منهم إلى هنا حوالي مليون مهاجر، وذلك بعد فتح الحدود بقليل، وهذا العدد يقارب عدد العرب المحليين.

كان فتح الحدود، باتجاه الغرب، بالنسبة إلى السوفييت، أمراً جذاباً إلى حد أنهم قد أصبحوا بين ليلة وضحاها يهوداً!

بعض التقديرات تؤكد أن نسبة 40% من المهاجرين الروس قد حصلوا على الجنسية الإسرائيشلية استناداً إلى وثائق مزورة، وكما يعترف لي إليوشا مؤخراً، فإن يهوديته قد كلفته 300 دولار. أما سبب الرغبة في الحصول على جواز السفر الإسرائيلي، فقد كان بسيطاً: إنه يفتح الأبواب للسفر إلى معظم دول العالم، خاصة إلى أمريكا، العدد الكبير من هؤلاء الذين صعدوا إلى الطائرات، مباشرة بعد حصولهم على جواز السفر متجهين إلى الولايات المتحدة، كان سبباً لإعادة نظام الفيزا بين البلدين.

الإنشداد نحو الحلم الأمريكي لم يترك الروس حتى اليوم، «سأكسب بعض النقود، وأدرس اللغة الإنكليزية ولا شيء يدفعني للبقاء هنا»، بهذه الكلمات ينهي إليوشا، الذي اختار السفر إلى كندا، حديثه القصير معي، أما أنا فلا أستغرب مشاعر الكراهية التي

يحملها الفلسطينيون تجاه المهاجرين، خاصة إذا أضفنا لذلك أنهم لا يحصلون على حقوقهم مجاناً وبسهولة، كما هو الأمر بالنسبة إلى مواطنيهم الجدد.

وَدَّعت إليوشا بلغة روسية ركيكة، كما علمتني إياها معلمتي في المرحلة الابتدائية، وقد أسعده ذلك، وهكذا فإننا نفترق بابتسامة، وبها يودعني حاملاً معه أحلامه، أمّا أنا فقد عشت تجربة مثيرة قد تمكنني من تمييز الناس في بلاد يكون التمايز فيها قاعدة، وهذا أمر يناسبني.

عيد

زرت مع أصدقائي خلال الأيام القليلة التي قضيتها في إسرائيل مناطق كثيرة، إنها بلاد متنوعة الألوان بشكل غير عادي، ومع أن جفافها وآثار لسعات الشمس عليها واضحة في كل مكان فإن لـ (يهودا والسامرة . الضفة الغربية . والجليل) ملامح فريدة، تختلف عن تلك التي تتصف بها بقية فلسطين وتضفي على هذه المناطق سحراً خاصاً، هذا هو على الأقل انطباعي العابر عن بلاد تتغير أمام ناظري كل عشرة كيلومترات وربما كان الأمر يتعلق بملاحظتي المفرطة لا غير، التي أحاول بوساطتها تذكر كل قطعة أرض من صحراء النقب، وحتى المزارع الخضراء في مرتفعات الجولان.

ينتشر العلم الإسرائيلي في كل مكان، إنه يُعَدّ بشكل ما، عنصر توحيد ويزين البلد كله، خطان زرقاوان على أرضية بيضاء تتوسطها نجمة داوود، ولهذه الخطوط معنى مثير، الخط السفلي يمثل نهر النيل، والعلوي الفرات، أمّا النجمة فهي رمز الأرض المقدسة، التي يراد لها أن تمتد من مصر حتى العراق، كان يجب على إسرائيل بوضعها الحالي أن ترضى بأراض أقل كثيراً، ومع ذلك لم تكن ولادتها سهلة، إن تصور أبي الصهيونية تيودور هرتزل عن أرض بلا شعب، يتحدّد فيها الوطن الضائع، كان على أقلْ تقدير حلماً، وحينما بدأ المستوطنون اليهود بالهجرة إلى فلسطين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، تحللوا من التصور المزعوم حول الصحراء الفارغة من البشر، مناظر الموانئ مثل حيفا ويافا وعكا وحتى المدن الصغيرة وآلاف القرى المحاطة بالمروج والأراضي المحروثة، لم تتطابق مع تصوراتهم عن البلاد، التي ستصبح موطنهم الجديد، لكن النبوءة المعاصرة تحققت في مسألة واحدة، فلأن هذه البلاد الخصبة كان

يرعاها آخرون، لم يبق للمستوطنين، في الحقيقة، خيار آخر غير البدء في البناء على الأراضي البور، وكلما ازداد عدد المهاجرين من اليهود إلى فلسطين، ساءت ظروف إنشاء مستعمرات جديدة، وفي الحقيقة نما الكثير من السهول في الصحراء، وفي المقابل ازداد انتقال الأراضي العربية الخصبة إلى أيدي المستعمرين، وساعدت على ذلك إدارة الانتداب البريطاني، الذي فُرض على فلسطين عام 1920، ولم تخف تلك الإدارة تعاطفها مع الحركة الصهيونية، وتحت مظلة وعد بلفور وزير الخارجية البريطاني، الذي عبر عن دعمه للهجرة اليهودية، بدأت مصادرة أراضي الفلسطينيين، الأمر الذي أرغم بعض المزارعين على بيع الأرض للتجمعات المهاجرة، التي ازدادت قوتها، حتى وصل عدد أفرادها عام 1912 إلى حوالي مئة وخمسين ألفاً، وهكذا ولدت بدايات الصراع الإسرائيلي . الفلسطيني.

التوتر، الخوف، الحقد، الهجمات المسلحة أصبحت سمة تلك المرحلة، التي حاول أحد الشعبين خلالها الحفاظ عن أرضه، بينما حاول الآخر امتلاكها، وتحقيق سيادته عليها معاً، «من الأفضل ألاَّ نتذكر»، هكذا كانت إجابة الكثيرين ممن يتذكرون تلك الأوقات على سؤالي: كيف جرت الأمور حينئذ؟.

كانت الطلائع اليهودية في ذلك الوقت مسلحة بشكل جيد، ليس بالأسلحة ودعم مؤيديهم فقط، بل بالعزم على تحقيق النجاح، أغلبيتهم ارتأت أنها إن لم تحرزه فيستوجب عليها في أسوأ الأحوال، العودة من حيث أتت. وفي الحقيقة لم يكن هناك ما قد يخسرونه، رغم أن مثل هذه الفرضية غدت غير واقعية نتيجة تنامي قوة النازية في أوروبا أواخر الثلاثينيات. وكلّما كان المستعمرون الأوائل أقرب إلى تحقيق أهدافهم تقدموا إلى الأمام بعزيمة أمضى لتخطي كل عقبة. ومع مرور الوقت، ومع امتلاكهم رؤية أوضح لبلدانهم الأصلية اتجهوا نحو حل مشكلتين جوهريتين. كانت الأولى أن الأرض بأيدي العرب، والثانية ما يمثله وجود الانتداب البريطاني، الذي غيّر ميوله نحو المهاجرين الجدد حسب احتياجاته.

ازدادت الهجمات العدوانية، منذ عام 1920 عندما أُسست منظمة الهاغاناه، ووصلت ذروتها في شهر آب (أغسطس) عام 1946، إذ قامت منظمة الأرغون بالهجوم على

فندق الملك داوود في القدس، الأمر الذي كلف البريطانيين حوالي مئة من القتلى، وأضحى ذلك سبباً دفع بريطانية للتفكير الجدي بخروجها من البلد. وبعد أن تخلت المملكة المتحدة عن انتدابها عن فلسطين، بشكل كامل، أصبح ما ينقص تحقيق الحلم القديم، قليلاً.

إن محاولات الأمم المتحدة حلّ الأزمة، التي كان قد مضى عليها بضع سنوات، بتقسيم فلسطين إلى قسم عربي وآخر يهودي، قد أفضت فقط إلى زيادة الجاهزية القتالية لدى الطرفين، وفي نيسان (إبريل) من عام 1948 هاجمت قوات كوماندو من منظمة الأرغون، بالتعاون مع نظيرتها شتيرن قرية دير ياسين، حيث قتل 254 من النساء والأطفال والشيوخ، وانتشرت أخبار تلك المجزرة، بسرعة كبيرة في كل أنحاء فلسطين. وبسبب خوفهم على حياتهم بدأ سكان القرى الفلسطينية بالمغادرة، انسحبوا إلى مناطق ومرتفعات الأراضي المجاورة الوعرة، ومثل تلك المجزرة حدثت أخرى في قرية صلاح الدين وعين الزيتون، أمّا في موانئ حيفا ويافا فقد شوهدت اضطرابات، وغادرها الكثير من الناس.

قامت مُكبرت الصوت، التي طافت القرى الفلسطينية بتحذير من لم يترك منزله من السكان، «إذا لم تغادروا فسيكون مصيركم كمصير دير ياسين». ومَنْ لم تُخِفْه هذه التحذيرات أُجبر على المغادرة بالقوة، وبذلك فَقَدَ حوالي ثلاث مئة ألف فلسطيني بيوتهم خلال عام تقريباً.

مع إعلان انتهاء الانتداب البريطاني في 14 أيار (مايو) 1948 أعلن قيام دولة يهودية مستقلة: إسرائيل. ها قد مضى على ذلك التاريخ خمسون عاماً، ولهذا فليس من الغريب رؤية الأعلام الإسرائيلية ترفرف في كل مكان، والأعمدة الكهربائية في الشوارع وقد تم تزيينها بالنيونات، التي اتخذت أشكال الرموز الوطنية، كذلك علقت الملصقات على الجدران، الجو الاحتفالي واضح في كل مكان، ألعاب نارية، عروض عسكرية، خطابات السياسيين، أما المدن الفلسطينية فلم يكن فيها ما يتوجب الاحتفال به.

في الحرب الإسرائيلية العربية فقد حوالي أربع مئة وسبعين ألف فلسطيني آخر بيوتهم، وبهذا ارتفع عددهم إلى حوالي ثلاثة أرباع المليون. أمّا من بقي منهم فقد فُرض عليه

قبول الجنسية الجديدة ونسيان أنه كانت هناك فلسطين في يوم من الأيام. لم يختلف وضع الكثيرين من هؤلاء عن إخوانهم، الذين لجؤوا إلى الخارج، وفي حقيقة الأمر كانوا هم أيضاً لاجئين في وطنهم، فلقد اضطروا لمغادرة قراهم إلى مناطق أخرى من البلاد، التي بدورها أصبحت فيما بعد جزءاً من إسرائيل. أمّا من رغب منهم بالعودة تحت ظل السلطة الحكومية الجديدة فلم يجد ما يعود إليه، لقد تم تدمير الكثير من القرى العربية، بهدف الحيلولة دون عودة السكان الأصليين.

حضرنا، أطلقنا النار، حرقنا، دمرنا بالديناميت، طردنا السكان وصادرنا كل ما تركوه خلفهم، بهذه الكلمات يتذكر أحد الأدباء الإسرائيليين الأوقات الماضية، إنها ذكريات لا تختلف عن تلك التي يحفظها الإسرائيليون العرب في ذاكرتهم. ولهذا لا يمكن استغراب موقف الفلسطينيين المختلف، تجاه الاحتفالات الحكومية.

امرأة فلسطينية مُسِنَّة تقول: «انتقلنا من منطقة لأخرى، اختبأنا، انتابتنا مشاعر الخوف، وفي نهاية المطاف انتهينا إلى هنا». لقد كانت أول امرأة ألتقي بها هنا.

تدوي الصفارات كل عام في ذكرى قيام دولة إسرائيل، كل شيء يتوقف لبضع لحظات: المشاة في الشوارع، الآلات في المصانع و السيارات في الطرق، يخرج السائقون من سيارتهم ليشاركوا مع الآخرين في إحناءة الرأس، تخليداً لذكرى الجنود الذين سقطوا من أجل إسرائيل.

وليس من الصعب التكهن بالكيفية التي ينظر الفلسطينيون من خلالها لهذه اللحظة، حيث يمكنهم التميز من السكان اليهود بشكل واضح، الأمر الذي يساعد الأجنبي على تمييزهم بعضهم من بعض أيضاً، فبينما يتوقف قسم من الناس عن العمل والسير وقيادة السيارة، لا يفعل الآخر مثل ذلك، وحتى إذا ما دوت الصفارات في لحظة يكون فيها الإسرائيلي من أصل عربي واقفاً، فإنه لا يتردد في الجلوس مزهواً، إنه تعبير عن ألمه الخاص أكثر منه عدم احترام، تختلف بشكل جذري الطريقة التي يستقبل فيها كل طرف هذا الحدث، فعندما نسمع الصفارات يذهب اليهود للاحتفال، في حين يتوجه الفلسطينيون، مسلمين ومسيحيين، للتظاهر، الرايات السوداء ومفاتيح البيوت التي تم تدميرها، هي وسائل إيضاح ليست مختلقة، تُحمل في المسيرات، حدث هذا في العام

الحالي أيضاً. الطلقات التي وجهها الإسرائيليون نحو تلك المسيرات، والتي هدفت لقمع مظاهر عدم الرضا، قد عمقت الهوة المستمرة منذ خمسين عاماً ذكرى النكبة الفلسطينية واحتفالات تكومي الإسرائيلية كما يسمي هذه المناسبة الفلسطينيون واليهود، انتهت بثمانية قتلى وعشرات الجرحى.

إن تدمير قرية مسيحية يوم عيد الميلاد، والاحتفال ببناء مدينة إسرائيلية جديدة في ذكرى مذبحة كفر قاسم والهجوم العسكري عشية الاحتفال بيوم كيبور.. تمثل وجهاً معروفاً بدرجة أقل عن العلاقات العربية الإسرائيلية، إن الجروح العميقة القائمة، التي لم تلتئم بعد، ستسبب الأوجاع لوقت طويل، من دون توافر رغبة الطرفين لعلاجها فإنها لن تهدأ أبداً.

باعث الاحتفال عند طرف هو باعث للحزن عند الآخر.

والعيد في عيون البعض هو مصدر عذاب للبعض الآخر، كم هي موضوع للخلاف الأعياد هنا. إن تجاوز الكراهية المتبادلة يمكن أن يؤسس لاحتفالات مشتركة، ومع أن هذه الحالة تعتبر حلماً لكثيرين فإنها ما زالت بعيدة، لم يبق سوى الإيمان بأن هذا الحلم سيتحقق في يوم من الأيام، فبمزيد من الجهود هناك أمل وفلسطين هي أرض تتحقق فيها أحياناً آمال بعيدة المنال.

انسَ من تكون

بدأت عطلة نهاية الأسبوع في إسرائيل، التي تزيد يوماً عما هو في بقية أنحاء العالم، يترك المسلمون أعمالهم يوم الجمعة وفي السبت يفعل اليهود الشيء نفسه، أمّا المسيحيون ففي يوم الأحد. تلقيت دعوة من أحد أصدقائي، إنه معلم يشارك في تنظيم الرحلات المدرسية، أجلس في باص الرحلة المليء بأطفال عرب، والمتوجه لمرتفعات الجولان هدف رحلتنا.

يقود السائق الباص بحذر، وبما أنني أجلس على الجهة اليسرى أستطيع مراقبة السيارات التي تتجاوزنا تباعاً، قبل ذلك كنت قد لاحظت أن السيارات المحلية لا تستعمل لنقل الركاب فقط، بل لإظهار وجهات نظر مالكيها عن العالم، فعادة ما يُزَيَّنُ الزجاج الخلفي بالملصقات التي يعبر السائقون من خلالها عن مواقفهم تجاه القضايا العامة.

وإلى جانب الشعارات الانتخابية وأسماء السياسيين، غالباً ما تتضمن دعوات للشعب، ذات تعابير عاطفية عن الوطن والعزم على النضال من أجل حريته. ومن خلال تلك النصوص القصيرة، لا يصعب على الأجنبي أن يُخَمِّنَ من الذي يجلس خلف المقود، هل هو يهودي، أو مسيحي، أو مسلم.

الاعتزاز الذي تبديه الأطراف المتصارعة قد حوّل نقاشهم العقلاني الممكن إلى موضوعات جدّية لأحاديث طرق السير، حيث يتبادلون التهديد والتحرش.

(إذا لم يحل السلام فستكون الحرب)، (القدس لنا)، (أتريدون القتال؟ سيكون لكم).. هكذا تُصَرِّحُ بعض الملصقات الكثيرة التي يتغير محتواها حسب الوضع السياسي وحسب الموضوع والمشاكل والمزاج السائد في المجتمع.

أحدث الشعارات الموجودة في تلك الملصقات تتعلق بالجولان.

بالإضافة إلى المناقشات المستفيضة حول موضوع إعادة هذه الأراضي لسورية امتلأ الزجاج الخلفي للسيارات بشعار (الشعب مع الجولان). هكذا يعبر الإسرائيليون عن دعمهم لمواطنيهم الذين يستوطنون تلك الأراضي موضع النزاع، الذي تطالهم حساسيتهم. أن يُعقد سلام مع الدول العربية المجاورة، يعني ترك المستوطنين للمناطق

التي احتلت عسكرياً عام 1967، التي ضمت إلى إسرائيل بعد أربعة عشر عاماً، يعيش في الجولان حوالي 16000 مستوطن، وإعادة هذه المرتفعات الجبلية تعني لهم رحيلاً مؤكداً عنها، لا يمكن هنا ألا نلاحظ ضيقهم، حيث أصبحت هذه المرتفعات بعد مرور سنين طويلة موطناً لهم، والوطن يُترك بصعوبة دائماً، لكن السوريين قد تركوه بصعوبة أيضاً، حينما اضطروا للرحيل غداة حرب الأيام الستة.

لا تشير أيّ من الملصقات للفرق بين وطنٍ حُصل عليه بالاستيطان وآخر يمثل الجذور التاريخية وتعاقب الأجيال، ولهذا فإن النظرة الأحادية الجانب لمشاكل هذه المنطقة قد تحولت إلى لعنة دائرةٍ مفرغةٍ يدور الجميع داخلها، وبهذه الملصقات التي تنعي العقل والتسامح من الصعب عليهم إيجاد طريق يخرجهم من هذه الدائرة.

الأطفال الجالسون في شارع ضيق يلعبون الورق، يلهون بلا هموم، فالنزاع حول الجولان لا يحوز على اهتمامهم، هموم الأطفال مختلفة تماماً عن هموم البالغين، خاصة إذا كانوا مقبلين على عطلة مدرسية، وبأيديهم أوراق اللعبة المزينة بالصور، إن صغر سنهم لا يمكّنهم من استيعاب ما يجري حولهم.

البلدة التي يعيش فيها أطفال رحلتنا كانت في الماضي محاطة بست قرى سويت بالأرض في الأوقات المأوساوية.

أما سكانها فقد انتهى مصيرهم إما إلى أحد مخيمات اللاجئين على الحدود، أو على الضفة الغربية وقطاع غزة، وحينما يسألهم منظم الرحلة إن كانوا يعرفون أسماء ثلاث منها على الأقل، يصمتون لا يدركون السؤال، عندما سيبلغون الثالثة عشرة، سيكونون قد أتقنوا لغتين ويدرسون ثالثة، إنهم يعرفون عن تاريخ اليهودية أكثر من بعض اليهود. أما عن تاريخهم فلا شيء.

تخضع المدارس العربية في إسرائيل لمراقبة شديدة، أما الانحراف عن الأسس المحددة من قبل الدولة فيعد بمنزلة لعب بالنار، فالمدرس الذي يتحدث إلى تلامذته عن هذه المواضيع، إنما يخاطر بتسريحه من العمل أو اتهامه باللاسامية، بل حتى اتهامه بإثارة البغضاء تجاه الدولة، ويعتبر محو الذاكرة طريقة وحيدة للتخلص من الاضطرابات القومية في هذا المجتمع الإسرائيلي الممزق.

ولهذا السبب فإن شعراً يمجد حبة الزيتون في الجليل، يعتبر أمراً غير مرغوب فيه، تماماً مثل إحياء ذكرى مجزرة دير ياسين، إن الولع بالوطن القديم، الذي حافظ عليه اليهود مئات السنين يجب على الفلسطينيين، حسب التصور الإسرائيلي، استبداله بمقولة أن إسرائيل هي الوطن الوحيد الموجود.

يعيش اليوم في أراضي فلسطين التاريخية حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطيني يسكن ثلثاهم في مخيمات اللاجئين، تحولت خلال الخمسين عاماً الماضية إلى مدن صغيرة وسخة، وغير مكتملة البناء، وفي الوقت الذي يقتات فيه اللاجئون الفلسطينيون، الذين هم خارج الحدود على الذكريات. فقد توجب على من بقي منهم في وطنه النسيان، لقد أصبحوا مواطنين في إسرائيل، ومن مصلحتهم أن يقطعوا صلتهم بالماضي! وأن يحرقوا الجسور التي تربطهم به وألا يكترثوا أبداً، أمهات هؤلاء الأطفال لا تحدثهم عن القرى القديمة وعن الحقول والأراضي الزراعية التي كانت لهم. وإن عرفوا ذلك فهذا يعني أن مشاعر اللاصداقة والكراهية نحو من أخذ أملاكهم ستكون سبباً لدمارهم، وهذا القدر لا تريده أي أم لابنها. لكن عاجلاً أم آجلاً سيعرفون عن هذه الأمور، لأن ما يكتمه الأهل هو بالضبط الجواب عن الأسئلة التي ستقلقهم بعد وقت قريب، عندما سيسألون:

لماذا نواجه المشاكل في الدوائر الحكومية؟ لماذا لا نستطيع إيجاد عمل؟ لماذا نتقاضى رواتب أقل من نظرائنا اليهود؟ ولماذا يفتشنا البوليس بلا سبب؟ عندها سيدركون بأنهم أغيار، أنهم فلسطينيون. برغم كل شيء سيوجد دائماً شخص ما أو شيء ما يُذكرهم بذلك.

تتجه السيارة نحو المحطة الأولى لرحلتنا، نقف إلى جوار إحدى الحدائق المخصصة لراحة الإسرائيليين أيام العطل وفي نهاية الأسبوع، زاوية هادئة تحت ظلال الأشجار ومساحات خضراء مُعتنى بها، مقاعد وطاولات، وموقد نار لشي اللحوم لا غنى عنه للقيام بهذه الرياضة الشعبية، هكذا تبدو الأمكنة المخصصة للراحة والاسترخاء ولقاء الأصدقاء. يساعد الأطفال في نقل صناديق الليمونادة وسلات الفواكه وأدوات الأكل الضرورية للنزهة الحقيقية، الآن يمكن أن يبدأ تناول الوجبات السريعة على الحشائش.

تخيم غير بعيد عنا مجموعة من الفتية اليهود، الذين خرجوا للتنزه أيضاً. الفروقات بين المجموعتين محدودة باستثناء فرق واحد: اللغة التي يتكلمون بها، ليست لغة أطفال رحلتنا والقبعات، التي على رؤوسهم ليست قبعاتهم، وهذا أمر أكثر دلالة، أتابع باستغراب بالغ الفتيان ذوي السبعة عشر عاماً، وهم يحملون زجاجات الكولا بيد والبندقية بالأخرى، صديقي يخشى بحق فضول الأطفال فربما بصعوبة سيشرح لتلاميذه ضد من يحمل هؤلاء الشبان البنادق؟

ليلة بلا قمر

المدن المقامة على أراض جرداء تقريباً، تكوّن الشكل الغالب للمنطقة، وعلى المنحدرات الجبلية التي تندر فيها الأشجار العالية تشع من بعيد، البيوت المبنية من حجر الكلس، بانوراما المدن والقرى تميزها مآذن نحيفة، قائمة على بناء صغير، تقدم إشارة واضحة عمن يسكن هنا، قباب الجوامع، التي غالباً ما تختلف ألوانها عن ألوان الأسطحة المستقيمة المجاورة، تضيف روعة لجمال الأماكن التي تسيجها أشجار الزيتون ذات اللون الأخضر الباهت، كسوار.

ورغم أن طابع البناء لم يتغير تقريباً منذ مئات السنين، فإنه يبدو اليوم، ولدرجة كبيرة، متأثراً بالبناء الأوروبي، إن المدن والقرى الأصلية تغادر طابعها باستمرار، تكفي ملاحظة أن معظم الأبنية الجديدة تعلوها السطوح الآجرية المنحدرة.

إحدى المدن الواقعة على مفترق السامرة والجليل أصبحت مكاناً أقيم فيه لبضعة أسابيع، إنها من تلك المدن ذات الطابع العربي، شوارعها مختلفة عن شوارع المدن الإسرائيلية الأخرى. البيوت هنا متلاصقة، وطرق مركز المدينة ضيقة إلى الحد الذي لا يمكن أن تمر فيها أكثر من سيارة واحدة، ولهذا فقد تخليت منذ بداية إقامتي عن فكرة التجول فيها بوساطة السيارة، إذ لم يبق لي خيار آخر، بعد تعرفي على النظام المحلي للشوارع ذات الاتجاه الواحد، حيث يجري التعاطي مع قوانين السير فيها بليبرالية كبيرة. أن تقود سيارة في طرق متعرجة وذات انحدار قوي، حيث يشكل زعيق الزمامير شاهداً يومياً على حالة النرفزة، والمشاجرة حول: من يعطي للآخر أفضلية السير، هو فن أعلن استعدادي للتخلي عنه، يتضح لي أن السير على الأقدام ليس أكثر أماناً فقط، وإنا في أكثر الحالات أسرع. ولهذا أمشي اليوم إلى المكان الذي ذهبت إليه مع أصدقائي للعشاء. تبادل الزيارات هو من تقاليد الحياة الاجتماعية هنا، وليس من الضروري أن تبلغ عن زيارتك مقدماً، فببساطة يحسب الفلسطينيون دائماً حساب الزوار غير المتوقعين، ولهذا يستغربون ما أذكره لهم عن العادات التشيكية حيث يتوجب السؤال أولاً عما إذا كان الزائر يستطيع المجيء.

العادات الاجتماعية المختلفة هي موضوع، يمكن بفضله إغناء الأمسيات المشابهة أو حتى ملؤها بها. إن ثقافاتنا مختلفة إلى درجة أننا نستطيع الحديث عنها باستمرار، نستطيع استعراض كل شيء من عمليات البناء إلى المطبخ الوطني وحتى مراسم وداع الموتى. يقع بيت مضيفنا أحمد وسط المدينة تقريباً، ويمكننا حتى من دون سيارة الوصول إلى بيته بسرعة. سيد البيت يستقبلنا بحفاوة، وإلى أن نُكمل تقديم أنفسنا نقف جميعاً على الشرفة بينما تحضر زوجته المأكولات، شرفة كهذه هي اختصاص محلّي، في الأشهر الحارة تُقضى فوقها أوقات طويلة من الحياة العائلية، من الإفطار الصباحي وتناول الأطعمة المختلفة وحتى الزيارات المسائية.. وإن لم تتوافر المكيفات في البيوت، فإنهم ينامون عليها خلال فصل الصيف كذلك، الأرضية في بيت أحمد مغطاة ببلاط مكسو لامع، وعليها فرش، يعلوها الكثير من الوسائد.

«تفضلوا بالجلوس» تخاطبنا سيدة المنزل، بينما تضع على طاولة مستديرة تقع في الوسط صينية كبيرة عليها كؤوس وعصير برتقال.. لقد وصلنا متأخرين قليلاً.

وقد فاتني متابعة توالي الصحون الصغيرة والكبيرة الممتلئة، التي غطت الطاولة كلها بسرعة كبيرة، وها هي بانتظارنا. تُرتَّبُ هذه المأكولات بعناية نسائية، منها: الحمص، الفول، الطحينة، متبل الباذنجان، اللبنة، الفلافل، الباذنجان المقلي، وبالنسبة إلي فإن أسماء تلك المقبلات هي مثل طعمها جديدة ومفاجئة تماماً، لقد تجاوزت عدم الثقة التي ترافق كل بداية، لكنني لا أصبر أحياناً، وأسأل ما هذا وما ذاك.

إن فضولي في محله، لأن عدد صحون المقبلات الموضوعة أمامنا يتجاوز الأربعين أحياناً، ولكي يشبع الإنسان يكفيه أقل من هذه الكمية بكثير، إن مضيفتنا طباخة ماهرة حقاً.

بعد العشاء تُقدم الفواكه والحلويات، ومع تقديم القهوة يبدأ الحديث بالانسياب، يتكلمون على كل شيء، السياسة والعائلة والوظيفة، وقبل كل شيء على الهموم، التي تُثقل كل شخص ويُسر حاملها بالبوح بها، أن تُفرّج عن كربتك وتدع الآخرين يتكلمون هي مسألة تخص الجميع بلا استثناء، إن مشاكلهم لا تختلف إلا قليلاً عن مشاكلنا.

يعمل أحمد منذ سبع سنوات موظف فندق في تل أبيب، وبما أن رئيسه في العمل قد تنحى فقد كان من المفترض أن يأخذ مكانه، ليس فقط لأنه أقدم موظف، بل لأنه يملك المؤهلات المطلوبة أيضاً، إنه الوحيد بين المرشحين الذي أنهى مدرسة الفندقة، ورغم ذلك فإنه لم يحصل على هذا الموقع.

بل شغله شاب لم يكمل عاماً واحداً في الفندق، وله مشاكل من ناحية الالتزام بساعات الدوام المحددة.. لكن! كانت له أسبقية أمام أحمد: إنه يهودي. يتوجّه أحمد نحوي قائلاً: «هكذا تسري الأمور هنا» وقدر أحمد انتاب معظم الفلسطينيين في مراحل مختلفة: ظروف عمل غير متكافئة، رواتب منخفضة، وضعية مهينة لا تتناسب مع المؤهلات، تلك هي ظروف عمل العرب في إسرائيل.

لإبراهيم الذي حضرت بصحبته قدر مشابه.

فقد أنهى الدراسة الجامعية فرع الكيمياء، ولأنه لم يستطع إيجاد وظيفة قرر دراسة الهندسة المعمارية؛ لأن حركة البناء في إسرائيل جرت وتجري بشكل دائم وبكثافة، لقد كانت خطوته في الاتجاه الصحيح، أكمل دراسته الجديدة وحصل بالفعل على وظيفة.

لكن للأسف تم تسريحه من العمل بعد أن رفض التعاون في مشروع يقع في القدس الشرقية.

إياد هو ضيف آخر، يحمل شهادة جامعية، لكنه يعمل بائعاً في كشك للوجبات السريعة.

والمشكلة التي يحاول في الوقت الراهن حلها، تسبب له هموماً أكبر من هموم العمل، إنه يريد الزواج، ولكي يحصل على يد من قد اختارها يجب أن يتوافر له بيت خاص به، وذلك كما تتطلب العادات المحلية، النقود اللازمة للبدء في البناء وفرها، والأصدقاء المستعدون لمساعدته موجودون أيضاً، لكن العقدة تكمن في قطعة الأرض التي سيبنى عليها، عائلته تمتلك غير القليل من الأراضي خارج المدينة، لكن تمت مصادرتها مؤخراً، طبعاً من دون تعويض.

مما يدعو للاستغراب أن الإجراءات التشريعية من حقبة الخمسينيات التي سمحت للإسرائيليين قانونياً بتوسيع ملكيتهم للأراضي على حساب الأراضي العربية ما زالت

سارية المفعول، وبالاستناد إلى الإجراءات تستمر مصادرة الأراضي العربية، فقد فقدت عشرون عائلة فلسطينية أراضيها مؤخراً، حتى أن نسبة الأراضي المصادرة في مدينة أم الفحم قد ارتفعت إلى 82%، ومن دون شرح طويل أفهم لماذا تتصف هذه المدينة بالوضعية التي هي عليها. شوارع ضيقة، وبيوت مكتظة، وقليل من المساحات الخضراء، هذا هو طابع كل المدن الفلسطينية، فهي بسبب نقل ملكية معظم الأراضي للدولة، لا تجد أين تتوسع، وتُفاقم هذه المشكلة أوامر منع البناء في مساحة تمتد ثمانين متراً اعتباراً من حدود المدينة ومن الشوارع الحكومية.

البيوت التي يمكن بناؤها في هذه المنطقة معرضة للمخاطرة بالهدم، رغم أنها تقام على أراضٍ ذات ملكية خاصة. هذه الإجراءات تطال الفلسطينيين فقط، وهكذا تتحول تجمعاتهم السكانية إلى مدن ذات كثافة سكانية تشبه الغيتو في كثير من الأحيان.

لا أريد اختلاق هدف هذه التضييقات، التي تسبب ظهور مدن كثيفة السكان بلا دوائر حكومية ومراكز صحية، فحينما يحتاج الفلسطيني لها، يتوجب عليه السفر إلى المدن اليهودية التي رغم قلة عدد سكانها تتوافر فيها تلك الدوائر والمراكز.

الشروط الحياتية المختلفة تبدو أكثر غرابة حينما نكتشف أن المسيحيين والمسلمين يدفعون للدولة ضرائب كما اليهود، لكن لا تخصص أموال كافية لمدارسهم ومستشفياتهم «ببساطة لا يحسب لنا حساب، فنحن مواطنون من الدرجة الثانية».

يعلق أحمد وهو يناولني، وابتسامة ترتسم على وجهه، صحف الأمس التي كتب فيها عن مشروع قانون لميزانية المدن غير اليهودية تتضمن اعتماداً أقل مما هو عليه.

هموم الفلسطينيين المتعلقة بالملكية وبوضعهم ومساواتهم بغيرهم تبعث على المرارة، التي على الأغلب تكمن فيها جذور عادة غريبة سمعت عنها خلال إحدى زياراتي السابقة.

إنهم يصبّون التراب في عيون الموتى قبل دفنهم . وكما يقال . حتى يدركوا أنه الشيء الوحيد الذي يستطيعون حمله معهم، بغض النظر عن غنى ومكانة الميت، عزاء الموتى أنهم إنما يتركون خلفهم المعاناة والمشاكل اليومية.

رياح المساء التي تهب من جهة البحر، تحمل معها جواً رطباً، تصمت الشوارع، ويقل عدد النوافذ المضيئة، وتسطع النجوم في السماء الصافية، ليس لدي ما أضيفه لهذا الحديث غير المُسِر. ولذا أراقب برأس هائم سماء الليل، أحاور العثور على القمر الذي هو في كماله اليوم، لكن أينما وجهت نظري لا أجده، ربما اختبأ خلف سطح بناء حولنا، يبدو أن نهار الغد سيكون حاراً وخانقاً.

* * *

هدوء في الضفة الغربية

أكياس من الرمل كدس بعضها فوق بعض عالياً، حواجز إسمنتية محمولة، أسلاك شائكة، أبراج للمراقبة، مواقع متحركة، وبضعة أدوات خاصة بالمواقع العسكرية. كل هذه الأشياء يجدها المرء منتشرة في كل الطرقات تقريباً، الواصلة بين الضفة الغربية وإسرائيل، في الأراضي المحتلة يمكن اجتياز مثل هذه المواقع من دون أن يعيرك أحد انتباهاً. وإذا لم يكن هناك إغلاق معلن فإن الجنود يسمحون بمرور كل شخص، لكن بالمقابل ليس بالإمكان عبورها في الاتجاه المعاكس أي باتجاه إسرائيل، دون أن يخضع العابر للتفتيش، عندما توقفت سيارة آتية من الاتجاه المعاكس أحنى جندي رأسه على نافذة سائقها بينما اجتزت أنا وبعض الركاب الموقع دون أن نوقظ أي انتباه. انفتحت أمامنا منطقة لا تختلف عموماً عن مثيلاتها في الجانب الإسرائيلي، لكن تُلاحظ إلى حد ما فروقات عميقة في جوهرها، ندخل إلى فلسطين 1967.

في البداية لم أكن أعرف ما الذي يعنيه هذا الرقم، لكن إدراكه لم يتطلب مني انتظاراً طويلاً، فهمت الأمر بنفسي، كان يكفيني الاستماع فقط لفلسطينييْن يقدم كل واحد منهم نفسه للآخر. إذ بينما قال أحدهم للآخر: إنه من 67، أجاب الثاني بإيجاز إنه من 48. وهذه الأرقام لا تشير إلى شيء آخر غير أعوام الحرب، كم هو أمر بسيط وسهل للسائح، كم هو معقد وقاس للفلسطينيَيْن اللذين استمعت إليهما، قد يبدو مثل هذا الهراء، الذي يتخذ شكل أرقام ويستعمل تعبيراً شعبياً، أنه بلا معنى، لكن العكس هو الصحيح، لا شيء سهل هنا كما قد يبدو للوهلة الأولى.

لعرب فلسطين إلى جانب ماضيهم، طابعهم الخاص أيضاً، وعلاقتهم القوية بالأرض وقدر يتمثل في غياب الحضور المشترك، إنهم شعب فقد خلال الأربعين عاماً الماضية أهم شيء كان يجمعهم بعضهم ببعض.

لقد فقدوا العيش المشترك في بلدهم، ورغم أن القواميس العلمية تورد أن الشعب ممكن وجوده حتى لو لم يملك وطناً، إلا أنهم بخسارتهم للوطن فقدوا ما هو أساسي، وما يمكن أن يبنوا عليه مستقبلهم، إنهم مشردون الآن في كل أنحاء الشرق الأوسط، وقد

حل الاغتراب واليأس محل الاتصال المتبادل والنمو الثقافي، بينما بقي لهم الحلم ورقمان.

في الضفة الغربية يتضح بأسطع وجه أن تحقيق الفلسطينيين لرؤيتهم بعيد عن متناول أيديهم، وكم هم بعيدون، وفي أي هوة تهوي طموحاتهم، وكمثال على ذلك الطريق الجميل المزفت حديثاً، الذي نستعمله باتجاه عمق البلاد، حيث يتعرج في المنطقة بجمال ويضفي بحداثته الهدوء والسلام على أجواء البناء والعمل، وحتى هذا الوصف سينتهي إلى خيبة أمل، بالضبط مثلما توهمنا الشمس والهواء الحار بأننا أمام ما نسعى من أجله، لكن سرعان ما يتضح لنا أنه السراب الذي يغيب عن الأنظار سريعاً، فهذا الطريق هو وليد النظام المبتكر للاتصالات الأرضية الذي يربط بين مستعمرات يهودية متفرقة أقيمت عن سبق إصرار على المرتفعات المطلة على القرى الفلسطينية. ومنذ عام 1967 بنيت هنا عشرات المستعمرات ويجري باستمرار بناء المزيد منها. لها طرق يمنع المواطنون العرب من استعمالها، وبذلك تتشكل شبكة طرق ملتفة تفصل ما بين المدن والقرى الفلسطينية. وبهذا النظام المبتكر يُعزل الفلسطينيون ويُسجنون ضمن كانتونات تحيط بهم الحواجز العسكرية التي تُصَعِّبُ عليهم، بل أحياناً تمنعهم من الحركة الحرة تماماً.

مُسنٌّ من إحدى المناطق المتاخمة للحدود أسرَّ لنا بهذه الكلمات: «إن أَردتُ التوجه لرؤية القدس يجب عليّ اجتياز عدة حواجز وهو أمر غير ممكن تقريباً»..

سنوات عدة مرت دون أن يستطيع هذا الرجل رؤيتها، وكما يقول فإنه لن يستطيع ذلك أبداً وهو لا يعتقد أن فكرة الدولة الفلسطينية ستتحول خلال حياتهم إلى حقيقة واقعة، كما أنه لا يثق بأن العملية السلمية ستثمر عن نتائج، وأخيراً لا يصدق أنه سيتمكن من رؤية شقيقته التي لم يرها منذ خمسين عاماً، إنها في عداد اللاجئين الأوائل إلى الأردن، ولا تستطيع العودة.

لكن فكرة العودة ما زالت تعيش بين اللاجئين، إذ لا يخضع الجميع للتشاؤم وسلطة الحكم الذاتي تبني حول مدنهم بيوتاً جديدة للاجئين الذين سيعودون يوماً ما.

إسرائيل تبني في الضفة الغربية أيضاً، حيث تظهر مستعمرات جديدة، ويجري توسيع الجاهز منها.

أما تلك الطرقات الجميلة التي تنتهي عند المناطق العربية فهي أيضاً بازدياد، تمت الموافقة في منتصف هذا الشهر على قانون يحرر من الضريبة الإسرائيليين الذين يقررون السكن في الأراضي الفلسطينية، لقد ارتفع عدد المستوطنين إلى الضعف خلال الفترة الهادئة نسبياً التي مرت منذ توقيع اتفاقيات أوسلو وأصبحت الحلول المرضية للطرفين تتعلق بإرادة الطرف الأقوى، وتم تأجيلها إلى مستقبل غير واضح يتداخل مع الأساطير.

الفرصة التي أبدى فيها حوالي 50% من المستوطنين استعدادهم لترك الضفة الغربية قد تمت إضاعتها، ثم نُمِّي لدى الإسرائيليين شعور بأن السلام يمكن تحقيقه من دون الرحيل عن المستوطنات. ما زال يتدفق على الأراضي الفلسطينية مستوطنون جدد ومعهم أكثر فأكثر جنود يتوجب عليهم ضمان أمنهم. وهنا يطرح سؤال: هل تحرص إسرائيل فعلاً على أمن مواطنيها عندما ترحلهم إلى هنا؟ الحقيقة أن هذا الاستعمار الهادئ والمتدرج يمكنه خلق حالة متفجرة، خطرة على الطرفين.

يتفلسف الرجل المسن الذي لم نستطع رفض دعوته إلى شرب فنجان قهوة قائلاً: «من الأفضل ألاَّ يكون حل من أن يكون سيئاً.. ومن البديهي أن الانتظار والعيش من دون ضمانات لا يمكن استبدالها بانعدام أمل أكيد»...

لقد حدثنا في بيته عن كل شيء بقابلية، حدثنا عن شقيقته وعن جيرانه وأصدقائه عن كل من تجمعهم فلسطين الـ 67، وعندما سألته كيف يعيش الناس هنا أجابني بحكاية عادية من القرية. «أراد ابن أحد جيراني بناء بيت له، لكن الإدارة الإسرائيلية التي وقعت أرضه تحت إشرافها رفضت إعطاءه تصريحاً للبناء، واشترطوا لإعطائه الموافقة، التوقيع على التعاون مع أجهزة الأمن الإسرائيلية.

ببساطة لقد أرادوا شراء مخبر، هذا الشاب لم يفكر طويلاً بدأ بعد فترة وجيزة بالبناء وعندما أصبح البيت جاهزاً، دعته الدوائر الإسرائيلية من جديد وبشكل مفاجئ، يبدو أنه لم يخبر بشكل جيد، بعد استجوابه قالوا له: إن رخصة البناء كانت قد أعطيت له من

دون تمحيص وأن بيته يقع فوق منطقة أثرية، لذلك يتوجب عليه هدمه، لكن..! إذا تنازل للدولة اليهودية عن قطعة الأرض الزائدة التي يملكها سيتم تجاوز أمر الهدم».

تقطع زوجة الرجل المسن حديثه فجأة «اليوم يمررون لنا المياه والبراميل ما زالت فارغة».. هكذا تدفع هذه الدعوة الرجل المسن لقطع حديثه وللنهوض، إنه ذاهب لتأمين تخزين المياه لأن الإسرائيليين يمررون المياه للقرى الفلسطينية مرة واحدة كل أسبوع، وهكذا نفهم لماذا يتوجب عليه تركنا لبعض الوقت، وليس صعباً تخيل بقية تلك الحكاية، الأصعب هو توقع ما الذي سيجري لكل فلسطين الـ 67، الهدوء يخيم على الضفة الغربية حتى الآن.

* * *

شجرة الزيتون والقبر

الأماكن التي أمرُّ بها لدى عبوري الجليل والسامرة سواء أوحت بالتوراة، بالإنجيل أو حتى بشكل كامل بالقرآن هي كلها متشابهة، تحيط بها أشجار الزيتون، ورغم أن أغصان الزيتون لا تزين أياً من الإشارات أو الأعلام هنا فإنها رمز فلسطين بلا جدال. إنها وريثتها، ذاكرتها ومستقبلها. هذه الأشجار بأعمارها المختلفة هي الشاهد الوحيد الحي على المآسي التاريخية ومع أن أحداً لا يعرف عمرها الحقيقي فإن الكثير منها قد عاصر الإمبراطورية الرومانية. وفي ظلال بعضها أراح الكثير من مشاهير الناصرين رؤوسهم. لقد مر بتلك الأشجار الكثير، وكما يقال: لقد سقيت بالدموع والدماء، لذا فإنها لا تعطي ثمراً حلو المذاق، لكنها ومن جديد تثمر بلا كلل وفي ذلك يكمن الأمل بالحياة والاستمرارية.

حين يحل موعد القطاف تفتح النساء ما يشبه الشراشف الكبيرة تحت أشجار الزيتون وتستعمل العصي الطويلة لإسقاط حباتها عليها. أما ما سقط منها خارج الفخ المنصوب لها فتلتقطها من الأرض القاسية أياد صغيرة، وعلى راحات تلك الأيدي الناعمة تترك الأشواك ورؤوس الأحجار المدببة آثارها.

عندما يحل المساء تمسك أيادي النساء بأطراف الشراشف تهزها لتقذف الزيتون المجمّع في الهواء، الأوراق الصغيرة والبقايا تذهب بها الريح كما تذهب باليوم الذي يقُصر مع اقتراب فصل الشتاء، لقد انتهى الحصاد.

نضوج الزيتون وجمعه هو عمل احتفالي له متطلباته الطقسية، فلكي تنضج الثمار بشكل كاف يجب أن تمطر السماء بضعة أيام على الأقل، وذلك بعد سطوع شمس حارقة، لكن الطبيعة لا تحقق هذا الأمر للناس دائماً. ولهذا يتوجهون إلى دور العبادة ونحو قبور أجدادهم راجين هطول المطر.

في كل قرية أو مدينة عربية التي غالباً ما تكون مسلمة توجد قبور تقتضي التقاليد الربط بين التعبد والدعاء أمامها. وهي تعني للناس كما شجرة الزيتون قيمة مميزة، إنها جزء من هويتهم القومية وتأكيد لتقاليدهم وولائهم للوطن.

حينما حاول الإسرائيليون بعد قيام دولة إسرائيل عام 1948 من جديد، وهذه المرة باستمرارية التجذر في فلسطين كانوا يدركون جيداً غياب الإرث الملموس، فالعدد المحدود من الكنس والقبور التي اعتنت بها قبضة من المؤمنين لم تكن تكفي لبعث التاريخ القومي. لهذا كان من الملح تخفيض أثر الثقافات السائدة، محو كل ما هو غير يهودي من البلاد، ونسب كل أثر فلسطيني إليهم، وحيثما كان ممكناً خلق تصورات عن تاريخهم الخاص، لقد جري تقديس كل وسيلة تؤدي لتحقيق تلك الأهداف.

عبر السنوات الخمس الأولى من وجود دولة إسرائيل اختفت بالإضافة إلى 780 ألف فلسطيني 161 قرية غير يهودية. وسويت بالأرض تماماً مساجد وكنائس بيوت عادية، أمّا البساتين والكروم فقد تم تجريفها، كما جرى الأمر نفسه لمقابر الأديان الأخرى والقليل من الأشياء المهمة التي تنتمه إلى هذا المصير، لم تنج من التطرف الديني والقومي اللذين تم زرعهما باسم المعتقدات الصحيحة.

دور العبادة المسيحية والمسلمة الموجودة في مناطق استراتيجية حُوِّلت إلى كنس، وقبور الأئمة الشهداء أصبحوا مكاناً للراحة الدائمة لرسل العهد القديم، ومن نصوص الكتاب المقدس اقتطفت آيات تقدم تبريراً لسلامة تلك الإجراءات.

الميتون لا يقاومون، وهكذا فقد تقبلوا من دون مقاومة حكايات وصلوات وأسماء جديدة، تَغَيَّرَ مطلقو الأدعية، لكن الدعوات بقيت كما كانت أو مشابهة لما قد كانت عليه.

خلال زيارتي للضفة الغربية ومنها مدينة نابلس العربية حللت بواحد من تلك الأمكنة.

- «هل أنت يهودي؟».

- «لا» أجبت العسكري الفلسطيني الذي اعترض طريقي بالسلاح الذي يحمله.

- «إني آسف، لا يمكن التقدم أكثر، اليهود فقط يستطيعون الاقتراب من القبر».

- «إنني سائح».

- «لا يهم فأنا أعيش هنا، ومع ذلك مثلك لا أستطيع أيضاً.. رغم أنني صلّيت في الداخل قبل فترة لكن هذا ممنوع اليوم عليّ أيضاً». بصراحة مفاجئة تكلم هذا الرجل بدا واضحاً أنه يفضل الحديث على الحراسة المملة التي يؤديها، الناس المحليون هنا منفتحون كثيراً.

- «إن لم أطع كلامك وحاولت الدخول هل ستطلق علي النار؟» قلت ذلك بقليل من المداعبة أمتحنُ جديته، لكن ابتسامة ارتسمت على وجهه أكدت لي أنه قد فهم معنى سؤالي، إنه لا يريد تصديق أن هزل القدر قد جعل جندياً فلسطينياً يدافع عن كنيس كان مسجداً، دفاع الموت والحياة. يجيبني: «تبدو عاقلاً، أعتقد أننا نستطيع التفاهم» ويقترح علي أن أنتقل إلى مكان مُظلل حيث يوجد بقية الجنود وهناك قدم لي القهوة والماء البارد.

- «من أي بلد أنت؟».

- «من تشيكوسلوفاكية . يعني من الجمهورية التشيكية (تشيكوسلوفاكية»)! هذه من عندكم! يريني أحد الجنود بندقيته بابتهاج: «لقد أصبحت قديمة لكنها ما زالت صالحة للاستعمال».

إن لأسلحتنا هنا صيتاً رائجاً، لكنني واثق من دورها غير الحميد؛ لأن بها بالضبط تم تسليح وحدات الهاغانا وشتيرن ومؤخراً حتى وحدات الفلسطينيين أنفسهم. وقد ذُكِّرتُ بهذا الأمر أكثر من مرة هنا، وهكذا أوجّه عنايتي لموضوع آخر «من المدفون في الداخل حقيقة؟».

- «يوسف دويكات، الإمام المسلم، لكنهم يزعمون أن الراقد هنا هو نبيهم».

- «كيف يمكنهم ذلك؟».

- «في الثمانينيات بدؤوا يدركون أن عليهم يوماً ما الرحيل من الضفة الغربية، ولهذا لم يبنوا المستعمرات فقط، وإنما خلقوا تاريخاً أيضاً، بقدر ما يتجذرون هنا سيملكون فرصة أكبر للحفاظ على الأراضي المحتلة، وبهذا التوجه ينظرون لهضبة الجولان أيضاً، في البداية سمحوا لنا بالدخول إلى القبر، وفي عام 1987 أعلنوا بشكل حاسم أن البناء يقوم على كنيس ومنعوا المسلمين من الدخول».

أحاول بشكل غير تكتيكي مبالغ فيه معرفة المزيد.

- «وهل أنتم متأكدون حقيقة أن هذا القبر إسلامي؟» لكن الإجابات التي أتلقاها تصبح أقل مدعاة للابتسام.

- «هناك دلائل حاسمة، فالقبر يتجه كما غيره نحو مكة، أكثر من ذلك تعيش هنا الكثير من العائلات المسلمة، التي تحمل اسم دويكات وحتى المسيحيون لا يعتقدون أن هذا المكان مرتبط بأي شكل من الأشكال بالكتاب المقدس».

- «لكن لماذا سمحتم بذلك؟».

- «إذا كنت لا تستطيع الدفاع حين يأخذون أرضك أو حينما يزجون بك بلا مبرر في السجن، من الصعب أن تفعل شيئاً عندما يأخذون الجامع أو القبر، وكما يقال عندكم في أوروبا: ذرائع القوي هي الصحيحة دائماً».

- «وهل يوجد مثل هذا المكان الكثير؟».

- «بالتأكيد، في يافا مثلاً التي انحدر منها يوجد مكان مماثل، هناك مقبرة قديمة أقاموا فوقها أبنية، وليس بعيداً عنها . في تل أبيب المجاورة . ينتصب فندق فوق مقبرة، كما أنهم أقاموا فوق أكبر المقابر الإسلامية موقفاً للسيارات، أراهن لو أنكم تصرفتم مع القبور اليهودية في تشيكوسلوفاكية كما يتصرفون هنا مع قبور المسلمين لكان كتب حول هذا الموضوع في كل الصحف.

ماذا أقول؟ وأكثر الأماكن ظلمة هي التي تكون تحت الضوء».

تحت ظلال الزيتون يمكن قضاء اليوم بأكمله، لكن حتى أكثف الأغصان لا تخفف من لجو الخانق والهواء الجاف الذي يتعب الإنسان سريعاً ويصادر كل رغبة في الكلام، لم أر القبر من الداخل لكنني سمعت عنه الكثير المثير، مثلاً أشجار الزيتون التي لها من العمر مئات السنين، تنقل من الكروم إلى المقابر اليهودية بهدف إضفاء مسحة بيضاء قديمة عليها، إن تقاليدهم هنا لا يمكن إنكارها، لكنها لم تكن في أي يوم من الأيام بقدر يطبع فلسطين بالطابع اليهودي حصراً.

يختلف الأمر مع شجرات الزيتون الموجودة في مقبرة قرب مدينة نابلس، حيث يدفن في هذه المقبرة فلسطينيو مخيم قريب، تحول على مدار السنين إلى مدينة صغيرة، ورغم كونها مقبرة كبيرة وتنتشر شواهد القبور فيها بكثافة فإنها ليست قديمة. الأشجار هنا لم تستوف حقها من النمو بعد، ولم يك هناك من يستشعر الحاجة إلى غرس المزيد منها. ومنذ وقت قريب حلت عادة جديدة، إذ عوضاً عن غرس الأشجار تقوم النساء بنقل

الأحجار من الحقول بينما يقوم الشبان بقذفها على الجنود الذين تقوم أسلحتهم بدورها بملء المقبرة أسماء وتواريخ. لا يمنعني أحد هذه المرة من عبور الجدار المنخفض والمحاط بقبور كثيرة العدد، بل على العكس سرعان ما يحيط بي عدد كبير من الأطفال الصغار الصائحين «شالوم» يمكن لهؤلاء الأطفال بحق الاعتقاد بأنني يهودي خاصة أن قليلاً من السياح يقودهم ضياعهم إلى هذه المقبرة.

ربما لهذا السبب كان عليّ أن أخاف لكن بدل الجو العدائي الذي افترضه أجد فضولاً ومحاولة خلق اتصال. فجأة يظهر من بين الأطفال شاب أقدر أن له من العمر خمسة وعشرين عاماً تقريباً. «مرحباً، أنا أحمد، هل أستطيع مساعدتك بكيفية ما؟» في بلاد يستخدم فيها طرفان متصارعان الموتى في محاججتهم، لن يكون أمراً غير عادي أن يكلمك في مثل هذا المكان شخص غريب، كما لن يصعب على الإنسان تقدير موضوع الحديث الذي سيجري.

أحمد يسكن قرب المقبرة، ولهذا تسره مرافقة زوّار المصادفة، وكذلك الإيضاح من ولماذا يرقد في هذه المقبرة. وفي الحقيقة فإن الجميع يسكنون قريباً من المقبرة، لأنها كبيرة جداً، ولأن المخيم ذي البضعة عشر ألفاً من السكان، والقائم على مساحة صغيرة يمتد حولها، أغلب هؤلاء السكان هم من المطرودين واللاجئين من يافا أو حيفا، ورغم أن والد أحمد لم يولد في حيفا، بل يعرفها من خلال أحاديث الأهل فقط، فإن ولده أحمد يقول عنها من دون تردد مدينتي. ومع أنه لم يرها أبداً يربطه بها رغم ذلك رباط قوي يولد مع ولادة إنسان المخيم، أن تعتبر قرية قذرة ومحشوة بالسكان، حيث يعيش في غرفة واحدة حتى اثنا عشر شخصاً . موطناً لك أمر يكاد لا يصدق. لهذا لا يمكن استغراب زراعة الآمال البعيدة المنال وبعث الأحلام الضائعة،. من دون ذلك ستكون حياة المخيم لا تطاق. يخشى الإسرائيليون بحق ذلك اليوم الذي سيتحول فيه عدم رضا سكان غزة والضفة العارم، الذي يزداد عددهم بسرعة كبيرة إلى فتيل يشعل انفجاراً قد ذاقوا طعمه عام 1987، عندما استفاق الكثير من الفلسطينيين من عالم الذكريات، وتحولت الكلمات إلى أفعال والغضب إلى كفاح، لقد بدأت الانتفاضة الفلسطينية وأمام أعين الجيش الإسرائيلي انهارت فرضية حفظ النظام بالقوة، لقد طفح الكيل للفلسطينيين

فالسيطرة العسكرية جعلت من الحياة في المخيمات يوماً بعد يوم أمراً لا يطاق. تفتيش المنازل ومصادرة الحقوق المدنية والسكانية والإبعاد وفقدان الأشخاص غير المريحين والاعتقالات وتدمير البيوت ومصادرة الأراضي وتطبيق الأحكام العسكرية، كل ذلك ساهم في الهبّة التي صار الشبان الفلسطينيون يرمون خلالها الجنود الإسرائيليين بالحجارة والزجاجات الحارقة، أصبحت الانتفاضة شعار النضال من أجل الحرية والاستقلال.

لم يكن الجيش الإسرائيلي يملك بعد تجربة مواجهة الجموع الهائجة وهكذا أخذ جنوده يستلمون أوامر تقضي باستعمال مختلف أنواع الطلقات بما فيها الحية ضد المدنيين. حينئذ وَصَلَتْ إلى العالم الصور التي تُوثِّق من جهة الوجوه العابسة المذعورة والملطخة بالدم الذي يسيل من جروح رؤوس الجنود الإسرائيليين، ومن جهة أخرى صور النساء الفلسطينيات المهرولات نحو الجدران اتقاءً لركلات الجنود الإسرائيليين القاسية، وضربات أعقاب البنادق، بينما ترتمي على مقربة منهن أجساد أبنائهن، الذين لا حول لهم ولا قوة. استمرت حرب الشوارع طويلاً، وحملت الانتفاضة ملامح حرب أهلية، حيث قتل بأيدي الجار من تعاون مع العدو، كان يجب على الكثيرين أن يموتوا، حتى يدرك الطرفان أن الحوار والاعتراف المتبادل بالحقوق هو الطريق الوحيد، الذي يخرجهم من الدائرة المفرغة.

يقول أحمد وهو أحد المحظوظين الذين نجوا من إطلاق النار: «هنا يرقد ثلاثة وأربعون صديقاً لي» ويضيف وهو الذي كان قد قذف الحجارة أيضاً قائلاً: «الراقد في هذا القبر لم يكمل الثلاثة عشر ربيعاً، وهنا أيضاً يرقد بعض أوائل الضحايا. لقد كان عددهم أربعة عشر». ما يسرده أحمد لا يتم الإصغاء إليه جيداً، لكن الأسوأ من ذلك، كما يبدو، أن تعيش بتجربتك الخاصة كل تفاصيل هذا السرد: إطلاق نار، اعتقالات، تعذيب ثم تشويه جثث الأموات. كل هذه الأساليب كان مرسوماً لها بمساعدة الجيش الإسرائيلي على تخويف الفلسطينيين وإنهاء الانتفاضة في معركة بلا قواعد. لهذا لا يمكن استغراب حالة اليأس التي دفعت حتى بالنساء لرمي الحجارة، فالكثيرات منهن رأين أسوأ ما يمكن لأم أن تراه. أودّع أحمد وأسرع خارجاً من المقبرة، مخيمات

اللاجئين ذات القبور الكبيرة، ليست أفضل ما يمكن اقتراحه للسياح، وكما يبدو فإن شجيرات الزيتون هنا، ستحمل طعمها المر طويلاً. الله معكم.

* * *

اقتلاع الأشجار

تتوهج شمس آب بشدة منذ الصباح، إن لم تكن معتاداً عليها فإنها قد تحرق طلعتك وعيونك وكل شيء مكشوف من جسمك. أنتقلُ من البيت إلى السيارة المكيفة، التي ستحملنا إلى شمال الجليل. رغم أن هذا الجزء من فلسطين، قد تغير بشكل كبير، عبر السنوات الخمسين الماضية بسبب اختفاء غالبية سكانه الأصليين منه، ونشوء مرحلة جديدة بمعتقدات جديدة أضفت عليها وجهاً خاصاً، فقد وُعِدْتُ برؤية وسماع الكثير مما يحكي قصة الأوقات الماضية. عندما كانت الأشجار تعيّن الحدود، ولا تمثل موضوعاً للتنافر. صحيح أن تلك الأوقات لن تعود، لكن أشخاصاً ما زالوا يتذكرونها يعيشون هنا حتى الآن، وهم على استعداد للحديث عنها، بتشغيل محرك السيارة تبدأ رحلتنا ليوم كامل، وتمتلئ السيارة بالهواء البارد المنعش، يمر وقت قليل ونترك حيفا ما قبل الظهر، بشوارعها المكتظة، وينفتح أمامنا منظر منطقة هضابية، مليئة بالمنحدرات المغطاة بحشائش جافة، الغبار المنتشر في الطريق، والذي يتموضع حول الأشجار يشكّل خلف سيارتنا غيمة رمادية، وليست الأرض فقط بل حتى الجو يبدوان جافين ويحملان بصمات الشمس الساطعة، التي توحدهما في الأفق كدوامة متموجة، رئيفة التي أعرفها من براغ تشير إلى الصبار من النافذة، تشرح لي كيف أن الناس كانوا يحددون قطع أراضيهم بواسطته، وبه كانوا يحمون مزروعاتهم أمام الغنم، فهذا الحاجز الشائك يمنع الحيوانات من الدخول إلى حيث توجد الخضروات المزروعة التي تتطلب جهداً وعملاً كبيرين، كما تذكر أن الأراضي التي ينتشر الصبار فيها الآن كانت أراضي زراعية.

أمّا اليوم فحتى الغنم لا يجدها الناس إلا بصعوبة، هؤلاء الذين أجادوا استصلاح الأراضي الحجرية قد ذهبوا أو طردوا من أراضيهم، أما القادمون الجدد فقد اعتمدوا نمط الحياة المدينية في منطقة الشاطئ، حيث هواء البحر يساعد على تحمل الحرارة بشكل أفضل، القليل من الناس، فقط يستمرون في العمل الزراعي على هذه الأطراف الجبلية قرب الحدود اللبنانية. و لهذا فإن غالبية الأراضي التي تمر بها جرداء. نصادف أحياناً، على جوانب الطرق، بقايا بيوت منهارة، تقدم الدليل على وجود القرى

القديمة. لكنكم لن تجدوها على الخارطة، فأسماء مثل ترشيحا، بين روبين، سروح، أو المنصورة لا تعني اليوم لأحد شيئاً. ربما عندما تُذكر هذه الأسماء في مكان ما من سورية أو الأردن أو لبنان أو غزة، سيخفق قلب إنسان ما، وستحضر له ذكريات مأساوية عن الوطن، لكن هذه القرى قد فقدت هنا الاسم والوجه. بعد ما يقارب سفر ساعتين من حيفا باتجاه شمالها الشرقي نصل إلى هدفنا قرية إقرط، كم كانت مفاجئة لي، عندما لاحظت أن القرية عبارة عن كنيسة فقط وطرف أجرد من المرتفع الذي تقوم عليه، ترتفع الكنيسة بتدرج نحو الأفق الضارب للبياض وأمامها مجموعة من الأشخاص الجالسين على كراسٍ بلاستيكية وقفوا لتحيتنا «أهلاً بكم في إقرط». صدر هذا الترحيب من فم أكبرهم سناً، وبعد المصافحة الحميمة جلسنا معاً تحت واقية محسنة من الكتان الأخضر، التي ستحمينا من الشمس المتطفلة خلال زيارتنا. سألنا رجل منهم متوسط العمر، ذو شعر يخالطه البياض. «كيف كانت رحلتكم؟». ثم تلا ذلك الكثير من الأسئلة الودية المتعلقة بالعمل والصحة والأطفال، والموجهة في المقام الأول لرئيفة وزوجها، من الواضح أنهم يعرفون بعضهم البعض جيداً، ويولدون انطباعاً بوجود صداقة حقيقية تربطهم.

يجري تجاذب الحديث بشكل حيوي، وبما أنني لا أشارك فيه أراقب باهتمام المكان المحيط بنا، الذي تطغى الكنيسة على مشهده، وما كان لها ذلك، لو لم يحط بها هذا التجرد المتدرج من عتبتها باتجاه الوادي، ثم من هناك نحو أرض غير مستوية، إنها قطعة من منطقة مغطاة بحشائش جافة، حجارة ورمال، وهذه الأشياء ليست بالضرورة ظاهرة غير مألوفة، في بلاد توجد في جنوبها صحراء. لكنها هنا تُعطي انطباعاً غير عادي وتضاداً غير مألوف، لكونها غير بعيدة عن كروم التين والزيتون ذات اللون الأخضر، أما محيط الكنيسة فتغطيه مزبلة كبيرة منتشرة عرضياً.

يشدني من شرودي سؤال مضيفي: «كيف تعجبك إسرائيل؟» وبسرعة أحاول التفاعل مع الانتباه الذي قد تركز عليه فجأة: «شكراً تعجبني، لديكم بلاد جميلة لكنها بالنسبة إلي حارة جداً». قال أحد الحضور: «هذا صحيح ففي شهر تموز قد تصل درجة الحرارة حتى الأربعين لكن، يمكنك التعود على ذلك».

أما أنا فأحتفظ بنفسي بـ «الجواب» يمكن «لا» وقبل أن أهم بطرح سؤال عن مصير القرية التي ضمت هذه الكنيسة، بادر الرجل بالتحدث عن ذلك: «هناك، حيث كنت تنظر قبل قليل، كان يقف بيتنا». الحيرة التي غيّرت النبرة الواثقة لصوته، أكدت لي أهمية ما يريد قوله «لقد مضى على ذلك وقت طويل، البعض يفضل النسيان، لكننا لا نتصالح معه، لا يمكنك التعايش مع تهديم بيتك وتكنيسه حتى آخر حجر». وسط هذه الزيارة أبدو أنني الوحيد الذي لا يعرف شيئاً عن قصة قرية إقرط. أغير جلستي على المقعد قلياً، طلباً للراحة، بينما أستطيع بهدوء سماع سبب حضوري: أن أعرف شيئاً عن فلسطين القديمة.

كان ذلك عام 1948 حينما أعلنوا دولتهم على أراضينا، وبعد الحرب العربية . الإسرائيلية الأولى، التي تلت، أخذوا من مواقع المنتصر، كل ما كان يخصنا، لم نشأ أن يتم طردنا من قريتنا، ولهذا رفعنا في إقرط علماً أبيض».

وكإجابة سريعة على تنفسي العميق المؤشر لسؤال أنوي طرحه، قال وكأنما كان يقرأ أفكاري: «لم نكن نعتقد أنه جُبْنٌ منا، فكل هذه الأزمة مرت خارجنا، رغم أننا كنا نتبع بالضرورة أحد طرفي الصراع. لقد أردنا العودة بهدوء لأرضنا والاستمرار في الحياة التي كنا نعيشها. أكثر من ذلك فقد انتابنا الخوف. لقد قبل الجيش الإسرائيلي استسلامنا، وهكذا في الوقت، الذي قد طرد فيه فلسطينيون آخرون من قراهم، قيل لنا: إننا لاعتبارات أمنية سننقل من قريتنا لمدة أربعة عشر يوماً فقط، وعندما ينتهي خطر يتمثل بإمكانية تشكل مقاومة في القرى الفلسطينية، يمكننا العودة، لم نكن في ذلك الوقت نعرف سياستهم ووعودهم، ولم يبق لنا سوى الاستماع إليهم، أخذنا معنا الأكل وما هو ضروري جداً فقط، لم يخطر على بال أحد منا أنه إنما يرى قريته لآخر مرة، مرت الشهور وغدت أعذار الدوائر الإسرائيلية كلما مر المزيد من الوقت أقل إقناعاً، أما العودة فقد بدت أقل واقعية، صحيح أن إقرط كانت لا تزال قائمة لكن أخبار تهديم قرى فلسطينية أخرى قد بعثت في نفوسنا الشك».

«هل رأيت قريتك مرة أخرى؟».

«نعم لقد سعيت نحوها عام 1950 في ذلك الوقت توفي جدي، وكانت وصيته الأخير أن يرقد في مقبرة إقرط، ولأن الفلسطينيين لم يكونوا يستطيعون الحركة من دون إذن لم يصدر أبداً، فقد أحضرنا جثته سراً، وللأسف حتى الموت لم يعتبر سبباً كافياً للعودة، وهكذا حينما علم الجيش الإسرائيلي بعملية الدفن السرية أجبرنا تحت التهديد على نقل الجثة ودفنها في مكان آخر، وإلا فإنهم سيفعلون ذلك بأنفسهم، كانت تلك آخر مرة أزور فيها قريتنا بالشكل الذي كنا قد تركناها عليه».

«إنه لأمر محزن» قلت ذلك محاولاً خرق الهدوء الذي أسكت أحمد «ما الذي جرى بعد ذلك».. «بعد ذلك؟ حينما يفقد الأموات الحق بالرقود الهادئ فذلك مؤشر لأحياء لكي يبدؤوا الخوف، بداية العام التالي رفع ممثلو قريتنا دعوى إلى محكمة العدل الإسرائيلية العليا، فلقد أصبحنا مواطنين في الدولة اليهودية، لكننا في الوقت نفسه بقينا فلسطينيين لا نستطيع الانتقال بحرية من دون إذن.

وهكذا وبالرغم من أن المحكمة قد أقرت حقنا في العودة فإننا لم نحصل على كل الوثائق اللازمة لذلك، وبقدر ما كنا نلح على الدوائر الإسرائيلية لإصدارها، كانوا يحاولون بسرعة إيجاد حل يتوافق ونواياهم، بتاريخ 24 كانون الأول (ديسمبر) عام 1951 يوم ميلاد المسيح عيدنا الأكبر انتهى كل شيء. بدل أن يأخذ الجيش الإسرائيلي قرار المحكمة في الاعتبار، قام بتسوية قريتنا إقرط بالأرض، مئة وخمسون بيتاً تمت سرقة محتوياتها بدءاً، ثم بالديناميت والجرافات والوسائط العسكرية الثقيلة قلبت حجراً على حجر بالشكل الذي تراه اليوم، طمروا الآبار، اقتلعوا الأشجار والمزروعات من الحدائق من جذورها، لم يبق شيء في مكانه الشيء الوحيد الذي نجا، الكنيسة والمقبرة.

وما إن ألغيت القرارات التي تنص على أن تحركنا داخل إسرائيل ممكن بموافقة الدوائر فقط، وبوثائق تصدرها، حتى أوصلتنا رحلتنا الأولى إلى بيتنا هنا، وبما أنه قد سمح لنا اعتباراً من عام 1972 بدفن موتانا أؤمن بأن نهاية آخر رحلة لي ستكون في هذا المكان. ورغم أننا لم نحصل على حقوقنا، وكذلك ندخل أرضنا كضيوف، فنحن نأتي هنا نهاية كل أسبوع، من أجل أطفالنا، ليعرفوا أين كانت بيوتهم، وحتى لا ينسوا المكان

الذي ينتمون إليه، عليهم نعلق آمالنا بأن إقرط ستقوم من جديد، إن لم يمتد بي العمر حتى ذلك الوقت آمل أنك في زيارة قادمة ستستقبل في بيوتهم، وليس تحت السماء العارية».

لا أعلم لأي مدى يصدق ما يقوله، لكن كلماته تبدو كصلوات ودعوات ستبقى من دون سماع كما يتضح، لقد مضى نصف قرن تقريباً، منذ تحولت القرية إلى ركام، وخلال تلك الفترة حصل الأموات فقط على حق العودة، بفضل قلة من الناس، امتلأ ما قد تبقى لها من الحياة بالذكريات.

وبالدعوة للعدالة، لولاهم لنسي اسم إقْرط تماماً مثلما نسيت أسماء قرى عديدة انتابها نفس القدر. منذ عام 1948 أفرغت 400 قرية من سكانها وتم تدميرها.

قبل عودتنا طلبت من أحمد التصوير، وافقني ووجه آلة التصوير نحو المكان الذي كان قد قام عليه بيته ثم التقط صورة لإقرط، وبالرغم من انحناءة رأسه فلا يمكن إغفال اللمعان في عينيه. أعرف أنه معتاد على الشمس، بعد التقاط الصورة الأولى شكرته واقترحت عليه العودة نحو الآخرين، الوداع كان ودياً كما الاستقبال، وقد لوح لنا الجميع بأيديهم عندما غادرنا، وعبر الزجاج الخلفي للسيارة رأت للمرة الأخيرة منظر المسرحية التي لا يستطيع حتى صموئيل بيكيت تصور دراميتها المطلقة.

الطريق نحو سفح المرتفع وعر، وعادم السيارة يرتطم بالأحجار، نبتعد ببطء، أما أنا فأترجم في روحي إلى لغة مفهومة نصاً كتب . من دون تكلف . على لوحة معلق على حائط الكنيسة «هبّي أيتها العاصفة فالشجرة متينة ليس في جذعها فقط بل في جذورها أيضاً».

وأنا من هؤلاء الأواخر الذي يتمنون ألا يكون الأمر كذلك، لكن على الأغلب فإن الشجرة المشار إليها في هذا النص تقتسم من قدر الذين صمدوا في حدائق إقرط أكثر مما تقتسم من قدر الذين يحيطون بطريقنا نحو عكا.

عكا

عكو، هكذا يسمّى اليوم المرفأ الواقع أقصى شمال إسرائيل، هذا الاسم اليهودي المعاصر والرسمي أيضاً يشابه إلى حد كبير الأصل العربي لاسم المدينة، لكنها نفسها قد تغيرت في نواح عديدة باتجاه فقدان هويتها. هذا على الأقل ما يؤكده السكان المحليون، قسمها القديم بقي على حاله مثلها مثل المدن، التي تجذب السياح بمظهرها الساحر، إذ تراكم على جدرانها غشاء عتيق أخضر اللون، كما تحجب أسوارها الضخمة عقدة الأسواق والشوارع الضيقة حيث العوز والفقر يشكلان الوجه المعاصر لبوابة الشرق المجيدة.

قرأت عن عكا لأول مرة في (يوميات الحزن العادي) لمحمود درويش، وفيها يتأمل مرحلة طفولته، عندما شرع وهو فتى صغير في البحث عن أمه، التي ذهبت إلى أحد أسواق عكا، ولأنه لم يكن يعرف الطرق فقد ضاع، كيف لا ومثله بعد ذلك ضاع الآلاف الذين لم يكن سبب ضياعهم صغر سنهم. «كانت عكا تمثل لي حينئذ أبعد مدينة في العالم، أما اليوم . ويا للمفارقة . أصبحت تمثل لي من جديد أبعد مدن العالم» درويش الذي عاش في المهجر، ليس الوحيد الذي أصبحت عكا مدينة لا يمكنه وصلوها. وهي ليست الوحيدة أيضاً التي أغلقت بواباتها لسنوات طويلة أمام من كانت موطناً لهم.

تراجع نابليون أمام أسوارها يوماً ما. وعلى الأقل قذف بقبعته عبرها، لكن ما لا يعد من الناس تركوا ما هو أكثر بكثير من مجرد غطاء رأس أمام أسوار مماثلة. لقد تغيرت الأحوال فالأسوار الحجرية الضخمة ما عادت تخدم أغراض الدفاع تماماً مثلما أنها ليست هي من يمنع السكان الأصليين من الدخول إلى مدينتهم. تسلق الجدران حديثة العصر المشابهة لتلك التي كتب عنها سارتر، أسوأ من تسلق تلك التي تحيط بالمدينة. أدخل عكا في زمن لم يتبقّ أمام غروب الشمس في أيامه الكثير. بدأ معظم الباعة بإخلاء طاولتهم من الشارع، وتهيأ الظلام للحلول في الشوارع، محلات بيع المواد التذكارية وحدها بقيت مفتوحة تجذب السياح السكارى بسحر المدينة، لشراء الحلي والبطاقات التذكارية، وكما يبدو فالحياة صعبة، كل شيكل يُحصل عليه من السياح

يتحول في أكف العديدين إلى خبز. أن تعيش من القليل وبصعوبة يعني لفلسطينيي المدن تعزيز عدم الرغبة بالاستسلام. وكونهم ما زالوا يعيشون هنا هو كفاح حقيقي. لكنه ليس النصر. أكثر من 70% من سكان إسرائيل غير العرب لا يخفون رغبتهم بحل العداء المستحكم والمستمر مع الفلسطينيين عن طريق طردهم إلى العراق مثلاً أو إلى أي بلد عربي آخر.

وحتى أكثر الحالمين بطرد الفلسطينيين منهم يتوجب عليهم رؤية الواقع لهذا فهم يعملون في الحد الأدنى على تجميع الفلسطينيين في وسط البلاد، خارج المناطق السياحية الجذابة. أما في مدن مثل عكا، حيفا، يافا أو القدس، التي تتصف باختلاط سكانها فإنه يتم التعاطي مع هذا الأمر على الشكل التالي: إن أراد العربي توسيع عقار يملكه لاستيعاب عدد العائلة المتزايد، أو حتى إذا أراد إصلاح سقف بيته وترميم أماكن تسرب المياه منه أو إصلاح البلكون الذي هو على وشك الانهيار فإنه يحتاج إلى ترخيص. وهذا أمر عادي لو تم منحه له. لكن يمكن للفلسطيني أن يكون واثقاً بأن رخصة من هذا النوع لن تمنح له. إذن تبقى أمامه ثلاثة احتمالات: بيع بيته في المدينة والانتقال إلى داخل البلاد (في الحالة الأفضل إلى الأحياء العربية في الضواحي) أو ترك البيت يتهاوى والانتظار حتى يقع على رأسه، أو ببساطة إصلاحه دون ترخيص أي المخاطرة باحتمال سجن مؤكد، أو خيار الهدم أو الغرامة المالية، وهي احتمالات واردة بشكل كبير، لهذا يفضل بيع البيت والانتقال إلى مكان آخر. أن يبقى الإنسان في مثل هذه المدن هي مسألة وقت فقط، متعلقة بصمود المنزل.

الدوائر الإسرائيلية قاسية وعنيدة. وإذا امتلك المراجع صبراً كافياً حتى يعرف سبب عدم حصوله على الترخيص فسيستلم أحد الأجوبة التقليدية «إن ترميم البناء يمكن أن يؤذي بجدّية طبيعة المنطقة، وكذلك القيمة التاريخية للبناء المقام» أو «الأرض التي ستبنون عليها هي مكان أثري هام، أو أنها مكان نباتات شبه استوائية محمية».

الدعوة للعدالة؟ ما من مجيب إذا لم يكن المالك راضياً يمكنه الرحيل، بالرغم من أن هذا الأمر يبدو لي غير قابل للتصديق، فإن الصحف هنا تحمل في اليوم التالي خبراً غير عادي: «بدأ أحمد سعيد حمدان، البالغ من العمر واحداً وثمانين عاماً، منذ يوم

الأحد، فترة سجن تستمر لألف يوم وهو محكوم بغرامة قدرها مئة ألف شيكل (حوالي مليون كرون تشيكي) لأنه قام، دون ترخيص، بإصلاح الطابق الثاني من بيته الكائن في منطقة سلوان (القدس الشرقية). المحكمة أصرت على سجنه رغم تقدمه في السن ورغم حالته الصحية الصعبة فهو مشلول جزئياً ومريض بالكلي، وحسب تقارير الأطباء فإن حالته تتطلب عناية فائقة، وبالاستناد إلى التخفيف، الذي أحرزه محامي الدفاع، يستطيع أحد أبناء حمدان دفع الغرامة المالية، لكن الحالة المادية لهذه العائلة لا تسمح لها بدفع أكثر من مئتين وخمسين شيكلاً كقسط شهري. وبما أن المحكمة ترفض ذلك فإن هذا العجوز يقبع في السجن، ليس من الصعب تقدير حالة الأحياء العربية في عكا، وليس صعباً على الإطلاق تخمين ما يفكر به السياح عن الفلسطينيين المحليين. فمنظر البيوت الآيلة إلى السقوط والمشوهة يفعل فعله عندهم. وإذا ما ترافق ذلك مع شرح ملائم من المرافق السياحي فلا يمكن استغراب المقولات التي يرددها الزوار في الخارج عن الفلسطينيين من مثل «تستطيعون بالتأكيد تصور أي نوع من الناس هم هؤلاء الذين يعيشون ويربون أطفالهم في مثل هذه البيوت!». بهذه وبمثلها من المآخذ تنمو في أعين السياح نظرة الازدراء واللاود، وترتفع الجدران، كما تصبح حواجز سوء الفهم أعلى فأعلى.

* * *

نجمة من بيت لحم

في اللحظة التي أحني فيها رأسي لأستطيع الدخول عبر باب صغير في حائط كنيسة المهد الحجري في بيت لحم، يغادرني نفاد الصبر والتسرع الذي رافقني حتى الآن كنت أخشى التأخر، وأن يكون الباب قد أغلق، لكن لحسن حظي أصل في الوقت المناسب، وهكذا ينفتح المكان أمامي حيث يسود الهدوء والظلام. ساعة بقيت حتى موعد الإغلاق، إذن لدي متسع من الوقت لاستعرض كل شيء، يجب علي أن أحني ظهري باحترام ففتحة الباب من الصغر بحيث يصعب حتى على طفل أن يمر من خلالها، ولهذا دلالة ما، لعلها ذكرى ليلة تنحني فيها ظهور الأقوياء تماماً كما الضعفاء. ولعلها دعوة للاحترام والطاعة التي يجب على الزائر تقديمها، بالتأكيد لا فرق فالناس يتقدمون اليوم لينحنوا أمام النجمة التي لا تسطع في الأفق، لكن على أرضية المكان.

أقف بصمت عند حائط كنيسة بيت لحم، وأتنفس بعمق، الجو عابق برائحة الزيت والخوابي والشموع المشتعلة. وللكنيسة جوها الخاص، عدد كبير من المصابيح والثريات المعلقة في كل أرجاء الكنيسة لا تضيء، بينما تقوم بهذه المهمة، لكن بتواضع، شبابيك صغيرة توجد تحت دعامات السقوف الخشبية، إنها كنيسة الأرثوذوكس، حيث يصلي الناس وقوفاً، لهذا لا توجد أي مقاعد على الأرضية الحجرية، بل بعض الواقيات الخشبية، التي تحمي بقايا الموزاييك البيزنطي من خطوات الأتقياء.

يهيمن على المشهد بأكمله محراب بهتت طبقته المذهبة، لكنه ينتصب بفخر فوق صحن الكنيسة الفارغ، وكأنه يدرك قيمة ما يخفي تحته، هذا الكنز هو مغارة يمكن دخولها بعد درجات شديدة التحدر توجد على طرفي المحراب. وتضم زخرفة معدنية من صفيحة فضية صقلتها أكف وشفاه المؤمنين تعني أنه المكان الذي وضعت مريم فيه مولودها.

ألمس برفق النجمة ذات الأربع عشرة زاوية والمثبتة على مرمر متشقق، وأفكر بالحدث الذي يتكرر في أوقات مختلفة، فالمغارة تستقبل المؤمنين يومياً، تماماً مثلما حدث لذلك الثنائي الذي بحث يوماً ما، بيأس عن ملجأ، إن أقدار الناس متشابهة إلى حد مدهش

مع من كانوا هنا، وأنا وحيد الآن، في المغارة التي يزورها في أوقات أخرى الكثيرون، المسيحيون لم ينسوا أماكنهم المقدسة، أما أنا فأذهب إلى كل مكان متأخراً.

في لحظة الوحدة النادرة، وفي مكان استثنائي كهذا لا يعكر صفوه أحد أتذكر هيرودوس الذي كان أمر في يوم من الأيام بقتل عشرات الأطفال خشية أن يظهر من بين صفوفهم ملك ليس إلا. أما اليوم فإن العالم المتحضر يتفرج على آلاف الناس الذين يموتون لأسباب متشابهة، فهل على الأقل، استنكرنا ما كنا قد شاهدناه قبل عامين، حينما قصف ملجأ في قانا، لم يمت أي جندي، بل مئة وستون شخصاً عادياً بينهم ثلاثة وثلاثون طفلاً؟ كم من مرة نخلط ما بين الدفاع والإرهاب؟ ونبرر الهجوم بخطأ قد وقع! وعادة ما نفكر ملياً عندما نتساءل بأي ثمن ومع من، ضد من، تذهب. إنها أسئلة تملك حساباتها المدروسة بإفراط، أما الأرواح المزهقة التي لا تعد فهي تمثل لنا أرقاماً للإحصائيات فقط، وكذلك فإن العدد الهائل من الضحايا ليس إلا ضربة تجارية، أعطيناها تسمية إنسانية: (النفط مقابل الغذاء).

نحن اليوم في الثامن من شهر آب (أغسطس) عام 1998، بالضبط اليوم الذي أعلن فيه رفع حالة منع التجول في مدينة الخليل. ومع أن هذا الرفع يستمر لمدة ساعة واحدة فقط، فقد رحب به الجميع بعد أسبوع من السجن المنزلي، سيكون جيداً أن نتذكر المئة والعشرين ألف فلسطيني الذين شملهم المنع، شوارع الخليل تمتلئ الآن بالأطفال والنساء المسرعات لإنجاز ما هو ضروري، ولشراء المواد الغذائية، لا أحد يعرف كم سيدوم هذا المنع، ولهذا فمن الضروري التزود بمخزون كاف من الخبز والحليب والبيض والفواكه، وعدد هذه المواد بلا نهاية، مثل انتظار انتهاء حالة الطوارئ، ولا يوجد استثناء للمنع، تماماً مثلما لم يمنح لامرأتين حاملين حاولتا الوصول إلى مستشفى الولادة. المنع يشمل الجميع ولهذا كان عليهما الولادة في البيت، لكن الوليدين في الظروف الطارئة قد ماتا. وفي هذا تشابه مع الحدث القديم الذي من أجله يحضر الناس من كل أطراف العالم، لكن حدث اليوم، على العكس من ذاك، لم تكن له نهاية سعيدة، على الأقل في تلك الليلة.

أخرج من باب جانبي للكنيسة، لكنه أكبر بكثير، حيث لا يجب على المرء الانحناء أن الحجاج الأوائل كانوا يعرفون جيداً أن ثمة أموراً تستحق الطاعة والاحترام أكثر من الحائط والحجر وقطعة من الصفيح، حتى وإن كانت من بيت لحم.

قهوة الوداع:

وصلت إلى تل أبيب دون أن أحسم أي مكان سأزوره أولاً، يداهمني شعور مماثل خلال الأيام المتبقية حتى موعد سفري، لكن الأمر يتعلق هذه المرة بما سأحمله معي للذكرى، القرار في الحالتين ليس سهلاً، الأول قد اتخذه مضيفي، أما الثاني فيقع عليّ اتخاذه.

يملك الإنسان الرغبة بحمل قطعة من كل شيء، لكن هذا ممكن في الذاكرة والصور وحتى هذه الفرضية قد تتعذر. أن تختار شيئاً يذكرك شكله، ملمسه وحتى رائحته بهذه الأجواء المحلية حتى وإن كنت موجوداً في وسط أوروبا هي مهمة صعبة، لكن الأطيب لنفسي أن أبحث عن مادة تذكارية أصيلة، عبر أسواق الخضار العابقة برائحة الفواكه والبهارات والقهوة العربية، التي يقدمها الباعة هنا احتراماً لزبائنهم ويشربونها معهم نخب نجاح تجارتهم، ورائحة القهوة هي ما يدفعني للوقوف في الأمكنة، التي تقدم فيها، الدعوة لشرب فنجان يتبعه آخر، دون أن تشتري، يقدم الجميع هنا القهوة، وفي كل مناسبة بينما تقتضي العادات في بلاد التشيك أن يُقدَّم للضيوف الخبز والملح، وفي حين أصبحت هذه العادة في غياهب النسيان، منذ زمن طويل، ما زال العرب هنا يتمسكون بالقول: «البيت الذي يزوره ضيف يباركه الله». والقهوة هي الوسيلة التي يبرهنون بها على مودتهم، ولهذا فإنني لم أرفضها في أي مرة، ذلك بالرغم من كونها قوية بشكل غير عادي وتقدم عند الزيارة مرتين. الأولى للترحيب والثانية عندما يعلن الزائر رغبته في المغادرة وتسمى قهوة الوداع.

تُغلى القهوة العادية فيما يبدو لمدة عشر دقائق تضعها النساء في وعاء ذي مقبض خشبي يقال له غلاية، يوضع فيها الماء أولاً حتى يغلي، ثم تضاف القهوة مع تحريك مستمر، وحسب ارتفاع الرغوة ترتفع الغلاية عن النار ثم توضع ثانية، يتكرر هذا الأمر مرات عدة حتى تصبح القهوة جاهزة، وقبل تقديمها تترك فترة من الوقت لتترسب

ثم تصب من الغلاية مباشرة في فناجين صغيرة. قهوة الأعياد تختلف عن العادية بطعمها وطريقة غليها، وتتوافق فترة تحضيرها مع معنى المناسبة المحددة، تحضّر أكثر الأحيان لمناسبات الخطوبة والأعراس والوفاة، وعموماً لكل المناسبات التي يلتقي خلالها جمع من الناس، إن كبر هذا الحجم يناسب حجم الأوعية التي تغلى القهوة فيها، تحضير القهوة لعدد كبير من الناس يقتضي مساعدة ذواق لطعمها وطريقة التحضير متشابهة لكن فترتها تطول أكثر قليلاً وتكرر مرات عدة.

يُكسب الهيلُ القهوة نكهة غير عادية، إنه بهار ذو رائحة نفاذة تنتشر في كل اتجاه، ويحب الرجال تغذية هذه الرائحة بالدخان المعسل المنبعث من النرجيلة، التي لا تغيب عن فترة استراحتهم في المقاهي أو عن أسطح منازلهم. بالنسبة لشراء المواد التذكارية فقد جرى اتخاذ القرار: حمل القهوة مع الهيل والنرجيلة سيكون أفضل ذكرى لهذا العام. المحلات والأكشاك التي تبيع هذه المواد لا تعد، والمساومة على السعر مسموحة، يبدو لي أحياناً أن المساومة على السعر تتبعها المهاودة، حيث المشتري يتيح للبائع إظهار كرمه. لكن سؤالاً يدور في داخلي أي مكانة سيتبوؤها الفلسطينيون اليوم لم يساوموا على أسعارهم ويخفضوها بأريحية. وهكذا فإن كلمات مثل «لو أن، وعندما» قد أصبحت ابتذالاً محلياً يُسمع من كل المقاهي حيث تفوح رائحة الهيل ويلعب الرجال الورق الذي يحملونه بأيديهم، بينما سحابة من الدخان الأزرق تمر فوق رؤوسهم ويستذكرون الأوقات القديمة.

من الممكن الالتقاء بعدد كبير من الرجال خلال فترة قصيرة، لأن فرص العمل تتناقص عاماً بعد عام، لكن وضع إسرائيل ليس بهذا السوء بحيث لا يمكن تأمين فرص عمل للجميع. المشكلة تكمن في اعتبار آخر فالعمل متوافر للبعض فقط. وبكلمات أخرى لأناس بعينهم لا يوجد عمل.

ساد مؤخراً تقليد يقضي بتشغيل أجانب بدلاً من الفلسطينيين، وهكذا يصل في الفترة الممتدة من الربيع وحتى الشتاء، شبان في مقتبل العمر من كل أنحاء العالم، للقيام بأعمال موسمية قصيرة وأخرى طويلة الأمد. لا عجب فمن ذا الذي لا يرغب بزيارة الأرض المقدسة، وفوق ذلك جمع النقود التي تغطي على الأقل تكاليف سفره وإقامته،

وقضاء وقت سياحي؟ العمل في البناء والزراعة، في المطاعم والمكاتب، سيجده دائماً طلاب من فرنسة، سلوفاكية، بولونية ومن دول الكتلة الشرقية السابقة، لهذا لم يفاجئني وجود عامل في مقهى على شاطئ تل أبيب يتكلم التشيكية. قام بخدمتنا حتى فتاة يابانية تعمل في كشك للوجبات السريعة، غير بعيد من البحر الميت، وفي إجابة عن سؤالها ماذا نطلب قال صديقي بالعربية: قهوة. أما تلك الفتاة فقد تابعت مباشرة بلغة إنكليزية متقنة عرض أنواعها المختلفة، لكن قبل أن نكمل التفكير بما سنطلبه وصلنا صوت صاحبة الكشك بالعبرية ومن خلف الزجاج «لا توجد عندنا قهوة» من دون شرح طويل أفهم لماذا.

* * *

إلى البيت بالباص

صيف جديد، أعود إلى البلد الذي تضخمه مقالات الصحف أكثر مما هو في الواقع، السبب بسيط، بلد صغير جداً بأزمات كثيرة جداً، وفي نهاية المطاف إن أراضي فلسطين من الصغر بحيث يمكن عبورها من طرف لآخر وبالعكس خلال بضع ساعات فقط.

ولهذا فإن الحفاظ على اتصالات دائمة مع الأقرباء في الجنوب، لا يعد مشكلة صعبة لدى الإسرائيلي، الذي يعيش في الشمال، كذلك يمكن الاستحمام في كل شواطئ البحر المتوسط والميت والأحمر خلال فترة بعد ظهيرة واحدة. يكفي أن تتوافر سيارة بمخزن مملوء، وألا تكون فلسطينياً من الضفة أو قطاع غزة ليختفي أي عائق أمام السفر السريع. لهذا فلا عجب أن يصبح اقتناء السيارة أمراً طبيعياً، ضمن المستوى الحياتي للمواطنين هنا، أما الذين لا يملكون سيارة فلا يجب عليهم أن ييأسوا، فشبكة الباصات وسيارات الأجرة يمكنها تأمين وصول أي راكب إلى أي مكان من البيت وبالعكس.

الشمس فقط والخوف من هجوم مسلحين فلسطينيين يمكنهما أن يعكرا صفو فترة انتظار واسطات النقل تلك. لكن الإسرائيليين قد اعتادوا على مثل هذه الأمور. على جانب الطريق، في منطقة السواحرة في القدس الشرقية يقف باص في ظله يجلس عجوز، يداه على ركبتيه وعلى رأسه الحطة العربية التقليدية، يحدق طويلاً فيما يحيط به، يبدو للوهلة الأولى وكأنه ينتظر سائقاً يفتح له باب الباص ثم يشغل محركه ويوصله إلى بيته، لكن عندما أقترب منه يتضح لي أن لا شيء يدل على وجود موقف للباصات هنا. وحينما تتبقى بضع خطوات فقط تفصلني عن العجوز يتضح لي الأمر أكثر. الباص ليس مؤهلاً حتى لنقل الركاب، وزجاجه الأمامي طلي بشكل تتعذر الرؤية من خلاله، المصابيح منزوعة، والعجلات محشوة بالرمل من جهة ومن الأخرى مثبتة على بلوكات إسمنتية. عريشة العنب التي تتسلق على قسمه الخلفي تؤكد أن الباص يقف هنا منذ زمن طويل «سبع سنوات كاملة».

يقول العجوز الذي لا يحتاج الانتقال إلى منزله فهو إنما يجلس أمامه، إنه يعيش مع عائلته في هذا الباص. كيف يكون ن السهل على الناس أن تفوتهم ملاحظة أمور

تجري في القدس، سواء تعلق الأمر بسياح تأخذ درب الآلام الحقيقية تصوراتهم الرومانسية عن الطريق المغبر المؤدي لما وراء الأسوار، أم بجنود تسلخ عنهم الأسلحة التي هي بأيديهم مشاعر التعاطف والشفقة، أم بفلسطينيين تصادر الدوائر الإسرائيلية بيوتهم، وحتى العجوز الجالس أمام الباص قد فاته شيء ما ليس أقل من الأمل. الأمل بالعدالة والشيخوخة الهادئة في وطنه، لقد اشتغل طيلة عمره ووفر النقود اللازمة لبناء منزله، وبعد سنوات اكتشف أن الجهود التي بذلها قد ذهبت أدراج الرياح، لقد روى لنا قصته بغصة، خلال تناولنا الشاي تحت عريشة العنب، إنه لا يعرفنا، ولهذا لا يمكن استغراب التحفظ الذي يزن به كل كلمة يقولها.

استطاع العجوز بناء منزله عام 1973 وعاش فيه لمدة عشرين عاماً، لكن كل شيء قد تغير حينما تسلم في بداية التسعينيات دعوة للمثول أمام المحكمة التي نظرت في إمكان استمراره بالعيش فيه مع عائلته، والسبب كان بسيطاً فقد بُني البيت قبل عشرين عاماً من دون ترخيص من الدوائر الإسرائيلية التي قامت حينها ولمدة ستة أعوام بإصلاح القسم المكتسب بالقوة من القدس، لقد ترددت تلك الدوائر فيما إذا كان يجب هدم البيت أم لا. وعندما مثل العجوز أمام المحكمة، كان واثقاً من أنه سيدافع بسهولة، وسيبرهن على غياب معنى الدعوة المقامة ضده، وبينما أعمته الثقة وربما حتى الخوف فإنه لم يقبل الافتراض بأن الأمر إنما كان قد تقرر منذ زمن بعيد، كان يكفيه النظر لما هو حوله ليتضح له كيف خسر مئات الفلسطينيين معاركهم مع عناد الدوائر الإسرائيلية.

تنفيذ الهدم كان مسألة أسابيع لكن الغريق يتمسك حتى بقشة، وهكذا دفع كل ما يملكه على تكاليف المحكمة، لقد خسر «لقد تم الأمر وكأنه آت من سماء صافية لا تنذر بأي عاصفة، في الثلاثين من حزيران (يونيو) عام 1993 أحاطت قوات من الجيش بالبيت. وخلال لحظات قليلة امتلأ محيطه بالجنود، فجأة كانوا في كل مكان، على الطريق باتجاه المنحدر، وعلى التلة المقبلة.. كان عددهم مئة أو أكثر. في البداية لم أفهم ما الذي كان يجري، ربما أنني لم أرغب بذلك أيضاً، وحينما رأيت الجرافة تتقدم، أصبح كل شيء واضحاً، استطعت بصعوبة حمل الأطفال وبعض الملابس بينما لم

أتمكن من إنقاذ أي شيء من الأغراض التي بقيت في الداخل، وخلال بضع دقائق كان البيت قد تحول إلى ركام.

مضت على ذلك الأمر ساعتان لم يعد باستطاعة أحد بعدها معرفة أن في هذا المكان كان يقوم بيت من طابقين فيهما أربع عشرة غرفة».

خلال زيارتي الأولى إلى القدس قبل عامين، قتل الجنود رجلاً حاول منعهم من هدم بيته، حينئذ هزني هذا الخبر ولم أفهم مأساويته إلا الآن حيث أقف وجهاً لوجه مع الرجل الذي لم يقاوم، وصان بذلك حياته، ربما العقل هو من قاده لذلك، ربما لحظة المفاجأة فقط هي التي لم تمكنه من فعل أي شيء، نشرب الشاي بينما أطرح على نفسي سؤالاً، ما الذي يستطيع الإنسان حمله من بيته خلال فترة ربع الساعة التي يمنحها الجيش لإخلائه؟ ألن تضيع هذه المدة بمحاولة إقناع الجنود، وهل يمكن خلالها إنقاذ أهم الأشياء، ثم ما الأهم وأي قيمة يكون لها في مثل تلك اللحظات البراد؟ التلفزيون؟ الغسالة؟ أم الملابس؟ الأكل أم المفروشات؟ هل يستطيع الإنسان في مثل هذه الحالة تذكر الكتب، صور الآباء والأجداد. اللوازم المدرسية للأطفال؟ هل بوسعه تخطي حالة الفوضى واليأس؟.

لقد تم هدم حوالي 2000 منزل فلسطيني في القدس الشرقية منذ عام 1967 وحتى الآن، آخر اثنين هدما منذ خمسة أيام في سلوان، وينتظر 118 منزلاً آخر نفس المصير، ليس من الصعب تقدير فظاعة هذا الأمر.

في منطقة السواحرة، في القدس الشرقية يقف باص على حافة الطريق ويسترخي في ظله عجوز، لقد حصل قبل سبع سنوات على هذا الباص كهدية تؤمن له ولزوجته مع أطفالهم الأربعة مكاناً للسكن. واضح لي أنني لن أستطيع ركوب هذا الباص ليوصلني إلى مركز المدينة، لهذا لم يبق لي سوى أن أصل المحطة التالية سيراً على الأقدام، الآن أدرك لماذا ينتاب الإسرائيلي شعور الخوف في الباصات، ولا أستغرب شعورهم هذا، لو كنت مكانهم لخفت أيضاً.

القدس

«لا تذهب إلى المدينة القديمة أبداً، فلا يوجد هناك أي شيء ممتع، القسم الغربي فقط هو الذي يستحق المشاهدة».

بهذه الكلمات حثني بائع الكتب القديمة في بلدي على عدم زيارة القدس العربية، لقد اشتريت منه خريطة لإسرائيل بخمسة كرونات، وبما أنني مزمع على القيام بأول رحلة لي إلى الشرق الأوسط، فقد استمعت لتعليقاته، نصائحه ووصاياه باهتمام، تكلم معي بطريقة الواثق والملم، ربما مثل كل الذين يبيعون الكتب القديمة، أما أنا فقد أحببت منذ الصغر مكتبات بيع الكتب القديمة، كانت تنبعث منها رائحة خاصة للأوراق القديمة والجلود، أما الباعة فيها فقد كنت أعتبرهم أكثر الناس حكمة، كان في مخيلتي أنهم إنما قضوا أياماً طوالاً بين رفوف الكتب. وقرأوا يومياً وباستمرار حتى المساء، وهذا ما جعل منهم علماء دوليين ومهرة ليس في الأدب فقط، لكن بالتاريخ وكل العلوم.

لم أكن أعرف الكثير عن إسرائيل وآثارها، ولهذا استمعت بسرور لما قاله عن الأمكنة التي تجب زيارتها، وبالعكس تلك التي لا يجب علي أن أزورها، لقد تكلم بشكل واثق بحيث لم أملك سبباً لعدم تصديقه، عندما مررت بشوارع القدس الضيقة لأول مرة عام 1998 تذكرت كلماته أكثر من مرة. وها أنا أتذكرها بعد سنتين في اليوم الذي أقف فيه مرة أخرى أمام بوابة دمشق، وأتهيأ لدخول المدينة القديمة، ومثلما أن الكتب المذهبة لا تعني بالضرورة أنها تحتوي على كنوز أدبية، كذلك فإن مهنة بائع الكتب القديمة ليست ضمانة بأنه لن يخطئ. الآن أدرك ذلك، وأستطيع القول أن بائعي هذا قد أخطأ، كيف؟ عرفت بنفسي أن القدس مخزن كنوز، حتى أنني أصبحت أدرك لماذا يقتنع الكثير من الناس بالعكس، لماذا يرون بها دونما انتباه، وأحياناً بخوف. المدينة القديمة ليست كبيرة تماماً، فيما يتعلق بمساحتها يمكن القول: إنها نقطة على الخارطة ربما لا تلفت النظر إليها بسهولة. وبالإمكان اجتيازها من طرف لآخر خلال بضع دقائق، لكن الحقائق والأساطير موضع النقاش تجعل من هذه المدينة، المحاطة بالأسوار المرتفعة مركزاً حقيقياً للعالم، على الأقل بالنسبة إلى مئات الملايين من المؤمنين الذين يطوفون شوارعها يومياً، أو الذين يطمحون عن بعد لزيارتها، الصوت المتهدّج والدموع في عيون هؤلاء الذين يتكلمون عنها تعطي لبائع الكتب القديمة بوجه من الأوجه بعض

الحق، الإنسان الذي يدخل القدس عاقداً العزم على رؤية شيء ما منها لا يحقق الكثير، مثل من هو متهيئ لتمثلها.

الأمر الثاني غير متاح للسيّاح غالباً، الذي تُنظِّم المكاتب السياحية الكبيرة رحلاتهم، فهؤلاء يرون حائط المبكى بسرعة، يستعجلهم بعد ذلك مرافقوهم إلى الباص، ثم يعيدونهم إلى الفنادق، حيث يكونون بأمان بعيداً عن الفلسطينيين «الذين يقتلون السياح أو على الأقل يسرقونهم» في المدينة القديمة. لا يمكن إلقاء اللوم على السياح الخائفين الذين يثقون بكل ما يقوله لهم مرشدوهم، فأغلبيتهم يقومون بزيارتهم الأولى، وهم بشكل عام مرتبطون بإرشادات المحليين. وهكذا يجد الغافلون عن الحقيقة أنفسهم، أمام حرب إعلامية يخوضها الأضداد المحليون، التي هدفها توسيخ الآخر، وأعترف بأنني وقعت يوماً ما في الفخ وصدقت.

إن استعراض حجج ومرارة الإسرائيليين، التي يشكلون بواسطتها تصوراً مشوهاً عن الفلسطينيين، لا يتطلب جهداً كبيراً. فالقدس القديمة، التي يعتبرها الإسرائيليون جزءاً من عاصمتهم لا تحمل في طابعها ما يؤكد ذلك. البيوت ذات الطابع الإسلامي يسكنها الفلسطينيون على وجه التحديد، ومنذ ثلاثة عشر قرناً يقوم جامع في المكان الذي كان يوجد فيه هيكل سليمان، ومن النظرة الأولى يتضح بأن المدينة التي لا يقل حب المسيحيين والمسلمين لها عن حب اليهود، لا تتبع لهم أبداً، وهذا هو السبب الرئيسي الذي يوضح من دون لبس لماذا لا يجب على السياح زيارتها! لماذا اسم المدينة هو الشيء الوحيد الذي يتفق عليه سكانها على اختلاف أديانهم وقومياتهم. ومع أنه قد تغير عبر التاريخ حسب الشعوب التي كانت قد أخضعتها، فإن معناه بقي نفسه «مدينة السلام». أورساليم، أورشاميم، يروشالايم، هيروسوليما، يروساليم، مدينة الكتب المقدسة هذه، التي يمتد تاريخها إلى ما هو أبعد من رومة أو أثينة، ما زالت بعيدة جداً عن التطابق مع معنى اسمها، يطير في الفضاء أحياناً حجر أو يسمع صوت طلقات، فيتبادل الناس في الشوارع نظرات البغض ويلاحق الجنود العجائز الفلسطينيات اللواتي يبعن الفواكه، وهذا العمل يشكل لكثيرات منهن الدخل الوحيد، الذي تحسَّن به ميزانية عائلاتهم الضعيفة، لم لا وتقاليد البيع هنا عمرها مئات السنين،

القليل من الصياح والبكاء، وسلة العنب المصادرة هي أبسط المسائل في أيام الحزن العادي لمدينة القدس، الصراع الحقيقي يجري في الخفاء بعيداً عن أنظار السياح، أزقة القدس تنبض بحيوية غير عادية، لا تترك مجالاً لمعرفة ما يجري في الخفاء.

أهبط الأدراج الضخمة نحو باب العمود، أكبر بوابات القدس، الساعة الآن تجاوزت السابعة صباحاً، والجسر الكائن فوق المجرى المائي، الذي يصل الأسوار بالعالم المحيط ما زال فارغاً، يمر هنا أحياناً جندي أو أحد الباعة، وعلى أطراف الجسر يأخذ أوائل باعة التفاح والفاصولياء وورق العنب الذي تعد الفلسطينيات منه أكلة لذيذة، اسمها ورق عنب ملفوف أماكنهم، ومن هذه الأمكنة بالضبط يبدأ سوق الخضار العربي المشهور، يسود هدوء الآن هنا، لكن بعد بضع ساعات سيتوافد آلاف الناس وسيكون اختراقه صعباً، سيسرع المؤمنون نحو الأماكن المقدسة، والسياح خلف مصوراتهن، أما المحليون فلشراء مناسب، لقد استيقظت المدينة ويجري التحضير لكل شيء، محلات البيع الصغيرة، خلف الأسوار، فتحت أبوابها منذ فترة طويلة وأصحابها أخرجوا بضائعهم أمامها ليتاح للمارة رؤية ما يمكن شراؤه من عندهم. الأزقة الحجرية تمتلئ ببطء، يوجد هنا كل شيء يمكن أن يستذكره الإنسان من الملابس والأحذية عبر الحلويات والبهارات وحتى الكتب والمواد التذكارية.. باختصار كل ما هو ضروري وكل ما هو زائد عن الحاجة، تقودني خطواتي الأولى نحو الباب الضخم الكائن في نهاية أحد الطرق الجانبية، غير بعيد عن البوابة، المكان الذي يختبئ خلف هذا الباب هو جوهر القدس وللأسف هو أيضاً جوهر الخلاف بين اليهود والمسلمين. إنه جبل الهيكل، مساحة واسعة تشغل سدس المدينة القديمة وذات تاريخ غير عادي، لقد أقام اليبوسيون، سكان القدس الأوائل هيكلاً في هذا المكان. وبما أن الآلهة قد باركته، فقد اعتبره العبريون القدماء الذين أخضعوه في العام 997 قبل الميلاد، مكاناً مقدساً، اشترى الملك داوود الأراضي المجاورة، وجهز كل شيء لإعادة بناء الهيكل، الذي حقق بناءه سليمان. وحسب الكتاب المقدس قام صرح ضخم من خشب الأرز ومن الذهب وعاج الفيلة، وكل هذا لم يسو من الأمر شيئاً. لكن بعد تقسيم المملكة اليهودية عام

586 ق. م ضعفت البلاد وسقطت أمام هجوم البابليين، الذين قاموا بهدم القدس مع هيكلها، ثم أقام الملك هيرودوس الكبير أواخر القرن السادس ق. م هيكلاً جديداً.
وفي عام 70م حوله الرومان إلى خراب من جديد، ثم أكمل هجوم الفرس عام 614م خراب المدينة، وفي الفترة التي أتى بها المسلمون إلى القدس كانت منطقة مهجورة، المسجد الأقصى هو آخر مكان مقدس هنا وقد بناه الخليفة عمر عام 638م وما زال قائماً حتى اليوم، ويعد بعد مكة والمدينة ثالث أكثر الأمكنة الإسلامية تقديساً، وفي زمن محمد احتل المكان الأول، فصلوات المسلمين الأوائل لم تكن تتوجه نحو مكة بل بالضبط نحو هذا المكان الذي يدعى الحرم الشريف. قبل الظهر هي أفضل فترة ليقوم الأجنبي خلالها بزيارته ما بين صلاة الصبح والظهر هي فترة محددة السياح رغم أنها لا تستغل من قبلهم كثيراً. لا أدخل وحيداً إلى الأبواب نصف المفتوحة، يقف قبلي بعض الفرنسيين، وفي الوقت الذي ينبه فيه حراس الحرام امرأة بطراز أوروبي كيف يجب عليها تغطية شعرها، يتلقى زوجها إرشادات توضح كيفية التصرف في هذا المكان، فمن الأمور الممنوعة هنا مثلاً، الدخول إلى الجامع بالأحذية والصياح ومظاهر الميل نحو النساء. أما القبلات أو تأبط أو حتى مسك يد المرأة فيعتبر خرقاً فظاً للعُرف المحلي، ويمكن أن يعني نهاية الزيارة. بعد تلك الإشارات يجب أن يكون واضحاً أن المكان الذي يدخلون إليه هو في الحقيقة استثنائي ومقدس، مسجد قبة الصخرة هو بلا جدل الأكثر شهرة بين الجوامع الموجودة هنا. وقد بناه الخليفة عبد الملك في الأعوام 687-691م وبسبب سطحه المشع يسمى الجامع الذهبي، لا أستغرب من يعتبره الأجمل في العالم، إنه في الحقيقة رائع، خاصة عندما ترتاح أشعة الشمس عليه في فترة الظهيرة، قبة الجامع هي من الألمنيوم المذهب وتعكس الأشعة بعيداً فتستلقي بدورها على الجدران المكسوة بالبلاط المصقول، التي تأخذ بالتراقص بألوان الأخضر والأزرق. الجمال ليس هو ما يجذب المصلين إلى الجامع، السبب هو تلك الصخرة غير الكبيرة التي يقف عليها هذا الجامع ذو الثمانية أضلاع، ومن هذا المكان بالتحديد صعد محمد في يوم من الأيام إلى السماء، وحسب اليهود فإنه المكان الذي أراد إبراهيم فيه التضحية بابنه إسحاق.

كما تبدو الأساطير القديمة جذابة من أفواه المؤمنين! في غمرة المشاعر الفياضة يستحضرون أنبياءهم ويزعمون بأن حكاياتهم حقيقية، وحقهم بهذا الجبل مبرر. لكنهم من أجل النقاش نفسه ينسون إيمانهم ويمارسون غالباً ما يتعارض مع معتقدهم. حاول اليهود أكثر من مرة تدمير الجامع الذهبي ليستطيعوا إقامة كنيس مكانه. وفي عام 1969 كاد الأمر يتحقق، النار التي اشتعلت في ذلك الوقت التهمت ثلث منطقة الحرم، وامتلأ بدخانها المسجد الأقصى أقدم الجوامع هنا، وبنفس الحماس الذي أغلق فيه الإسرائيليون مصادر المياه، بدأ المسلمون بإطفاء الحريق بماء آبار الحرم، وبذلك منعوا انتشار اللاحق. يتهدد الجامع نفس الخطر كل عام، إذ يحاول المتدينون المتزمتون في يوم ذكرى هدم هيكل سليمان، الدخول إليه من جديد، إنهم قبل أي أحد آخر اليهود الذين لا يعترفون بإسرائيل، لأن إسرائيل الحقيقية كما يعتقدون يجب أن يقيمها المبشر، وهذا لن يأتي ما لم يُبن هيكلٌ جديد.

أتفقد منطقة المتاجر والأكشاك التي توقف الزمن فيها بعكس الشوارع المجاورة لها، يتنزه الأطفال عند واحدة من النوافير، بينما يرتاح كبار السن تحت ظلال الأشجار، وتسر النساء المحجبات بعضهن لبعض بالأحاديث، ويمكن رؤية مجموعات أكبر من الناس عند مدخل الجامع، حيث يستغرق ربط وحل الأحذية بعض الوقت. لكن المساحة الواسعة المحيطة به تتثاءب بالفراغ الذي يضيع كل واحد فيه، فهذا هو أحد الأيام العادية، بينما يمكن رؤية عشرات ألوف المؤمنين في صلاة يوم الجمعة وفي الأعياد الكبيرة.

اقترب ببطء من بيت الصخرة، وكلما كنت أقرب إليه كلما رأيت الأقل من قبته إلى أن تختفي من أمام ناظري تماماً، أقف أمام باب الحرم المزين بالأعمدة الرخامية، وقد خف صبري قليلاً، أعرف ماذا يوجد خلفه، داخل يتلألأ بالذهب والأحجار الكريمة تحتضنه أضواء ملونة منبعثة من ألواح زجاجية في النوافذ. البناء جميل من الداخل كما من الخارج. أغرز أقدامي العارية في السجاد الوثير الذي يغطي كامل الأرضية، وأنظر مرة أخرى نحو مكان حفظ الأحذية في المدخل، لأتذكر المكان الذي وضعت فيه حذائي ثم يتجه نظري نحو المكان، الذي لا يعرف العادي في أيامه. أمر ببطء

بالصخرة المدهشة المحاطة بحاجز يعزلها عن الحجاج، الدخول لمكان الصخرة غير مسموح به، يمكن لمس المكان الذي يحمل آثار قدم محمد من خلال فتحة صغيرة. وبعد درجات قليلة يمكن الدخول إلى مغارة صلى محمد في وسطها مع بقية الأنبياء. إقامة الصلاة في هذه الأمكنة هي حلم كل مسلم، تبدد بعض المكيفات الهواء المثقل بالحرارة ونفس المؤمنين الموجودين، أهم بالجلوس قرب الحائط المقابل للمحراب الذي يحدد اتجاه مكة. المؤمنون منشدُّون بشكل كامل نحو شعائرهم، حيث يصلون بانحناء ثم باستقامة، تتاح لي فرصة استثنائية لرؤية كيف تتوجه النساء بدعائهن وهن واقفات خلف الرجال. يقف خلفي فلسطيني من غزة اسمه إبراهيم، عمره بمثل عمري، وهذا ليس هو الشيء الوحيد الذي يجمعنا فهو هنا مثلي أيضاً للمرة الثانية في حياته، ولو لم يكن مسلماً ومن هذه البلاد لما بدا الأمر غريباً. وكما أسر لي فهو هنا في القدس بشكل سري الآن، لأنه يمنع على فلسطينيي الضفة الغربية وغزة دخولها. لقد وصف لي كيف سار في الليل على الطرق الجانبية ليتجنب الحواجز العسكرية المنتشرة في المعابر بين غزة وإسرائيل، كان يعرف جيداً أنه إنما يخاطر بسجنه، لكن شوقه للحضور هنا كان أكبر من الخوف، ومن أن يقبض عليه أن يقتل بوصفه مخرّباً.

أغادر الحرم إلى مكان مقدس آخر، ليس بعيداً من هنا، وهو حائط المبكى، يحضر اليهود إليه منذ القرن السابع عشر، لكي ينوحوا على تهديم هيكلهم، على نفيهم وعلى كل المذابح التي عانوا منها. نفس المشاعر التي يثيرها الحائط لليهود، تثيرها للفلسطينيين، المساحة التي أمامه، وتستدعي إليهم الألم، مكان احتشاء المؤمنين اليوم يقع في الأمكنة التي قام فيها الحي العربي باب المغرب. وبعد احتلال القدس عام 1967م، طرد السكان المحليون منه وهدمت بيوتهم «إصلاحات» المنطقة المحيطة كان ضحيتها 130 بيتاً بما في ذلك جامعان. تلتقي العائلات في هذا المكان اليوم لتتبادل أمنيات سبت سعيد (شابات شالوم) يتقدم الرجال والنساء نحو الحائط كل على حده، يفصل بينهم حاجز خشبي ثم يحضرون كتابات قصيرة تتضمن أدعية أو أسماء الذين قد أتوا للصلاة من أجلهم. تلك الكتابات يزلقونها داخل شقوق بين أحجار مربعة تفاجئ بحجمها الهائل من يراها. حتى هذه الحيطان لم تنج من الخلافات التي تنتقص

من قدسية القدس. حسب المسلمين فإن حائط البراق كما يسمونه لم يكن في يوم من الأيام جزءاً من هيكل سليمان ولم يبنه حتى هيرودوس الذي أصلحه فقط، إن الاعتماد على ادعاءات بعض علماء الآثار يؤدي إلى التشكك بوجود المكان المقدس ذاته. تتضمن هذه الادعاءات وجهة نظر مفادها أن الحائط قد ظهر في القرن السابع جزءاً من النظام الداعم للجامع. الشروع في نقاش كهذا، من منهم يملك الحقيقة يشبه المشي على جليد رقيق، لكن الحقيقة أنه لا يوجد في صفوف الهيود أنفسهم وضوح تجاه هذه المسألة. فآخر محاولة جرت للبرهنة على حقيقة الحائط والأحقية بالقدس المرتبطة بذلك لم تحمل شيئاً طيباً، على العكس فقد استدعى حفر نفق تحت منطقة الحرم لخدمة البحث الآثاري، عنفاً آخر فقط، موجة الاحتجاجات ضد تدنيس الحرم، أصبحت موضوعاً لصراع جديد، جرى إطلاق النار في شوارع القدس من جديد، وطارت الباصات في الفضاء.

لم يسمح لي بالاقتراب من الحائط عبر بوابات الدخول، أُمرت بذلك بعد اكتشاف رجال الخدمة الأمنية أن فلسطينياً يرافقني، صحيح أنني لا أستطيع عن قرب رؤية المكان الذي قد سمعت عنه الكثير، لكن هذا الأمر لن يغير من رأيي شيئاً، القدس مدينة تستحق أن تزار، لا يكفي للأسف أن تراها وتعيشها، القدس تنتظر أيضاً أن يمكن فهمها، ويتحقق معنى اسمها.

* * *

فيا دولوروسا درب الآلام

ليس من الصعب عليّ وأنا بعيد عن وطني استحضار مشهد كنيسة صغيرة باروكية من الريف التشيكي، فإلى جانب أنواعها الماريانية والفاتسلافية المقدسة هناك جزء غير قليل من مثيلاتها تمثل دروب الصليب التي تملأ بلادي. لقد مرت المواكب من حول تلك الكنائس في عيد الفصح، وفي الصيف تناول الحصادون طعامهم في ظلها، لكن العقيدة الإيمانية عندنا قد مضت في طريقها الخاص، فالحصادات هي التي تحصد الحقول اليوم، والكنائس أصبحت موروثاً ثقافياً قومياً، يتداعى دونما انتباه،فكل ما قد تبقى منها قشرة الجدران المتساقطة، وتجويفات الجدران الفارغة، بعد أن سرقت منها اللوحات التي كانت تغطيها، وبقي كذلك وعاء المخلل الزجاجي، الذي اعتادت الجدات وضع الأزهار فيه.

هكذا تبدو طرق الصليب عندنا اليوم، لكنها تعود ببطء لحالتها التي كانت عليها في أيام قد خلت، أما ما قد أصلح منها وهي كثيرة، فتبحث عن مواكب تمر من حولها، لم يخطر على بالي في أي يوم من الأيام أنني سأستطيع رؤية درب الآلام الأصلية بأم عيني، كان لدي تصور معين هو حصيلة ثقافة الأفلام وصور حيطان الكنائس. لكن هذا التصور قد بهت لدى أول زيارة لي إلى القدس. لم يغب عن فيا دولوروسا . كما تفصح الترجمة اللاتينية لدرب الآلام . لا الصراخ ولا البكاء منذ وقت طويل. بالعكس فصراخ الباعة والجدل حول الأسعار تضفي عليه طابعاً علمانياً بحتاً، البضائع التي يعرضها التجار المحليون تعكس جو فيا دولوروسا أكثر مما تفعل ذلك شوارعها، الكميات المفرطة من تماثيل خشب الزيتون الصغيرة والكبيرة، صور مادونا، الصلبان، الشموع، والزيت الأصلي المقدس المضمون. هذا ما يميز أسواق القدس عن غيرها، هكذا تبدو درب الآلام المقدسية. في زاوية الشارع الذي يكاد لا يزيد عرضه عن أربعة أمتار تندفع جموع المؤمنين فجأة، ويتوقف الناس للحظة قصيرة مفسحين المجال للحجاج القادمين من المرحلة السابعة يتقدمهم راهب ويرتلون على ما يبدو بالإيطالية، النساء ببناطيل الجينز وقمصان الشيرت، يرفعن فوق رؤوسهن صليباً خشبياً. وبنفس

السرعة التي ظهروا بها تعود أفواجهم للوراء باتجاه وسط الشارع، ويغيبون عن ناظري لهذا أسرع الخطا لألحق بهم، وأمشي بمحاذاتهم.

تم لي ذلك في المرحلة الثامنة القريبة من الكنيسة القبطية، وهنا لا توجد أية متاجر لهذا ينعم الحجاج بهدوء أكبر لدى صلواتهم التي يبدؤونها بالركوع على الأرض العارية ويطبعون بحماس أكف أيديهم على التراب، ويستمعون برأس منحن إلى الراهب، الذي يقرأ مقاطع من الإنجيل آخر مرحلة تقع ضمن مساحة غير كبيرة أمام حجرات الأقباط مباشرة وهنا أيضاً يركع الحجاج ويعيدون ترتيل شعائر مشابهة لسابقاتها، وفي غمرة المشاعر وتحت أشعة الشمس الحارقة يغمى على إحدى النساء فيسرع نحوها الآخرون ويهوون بمروحة يدوية على وجهها، ثم يخرجون من محفظتها وعاء بلاستيكياً مليئاً بالماء لإنعاشها.

«جولجوتا» «الجلجلة»[1] لم تعد بعيدة، الحياة صعبة بذاتها في القدس ولدرب الآلام هنا وجه آخر إنه يأخذ شكل خوف وعدم اطمئنان ومشاكل مع الدوائر، تعيشه يومياً أغلبية المتدينين من مسيحيين ومسلمين. وكما أنّ مكانة القدس استثنائية قياساً بالمدن الأخرى، كذلك حالة سكانها الفلسطينيين، التي تختلف عن حالة البقية في إسرائيل والأراضي المحتلة. فما زال عددهم أكثر من عدد اليهود، وهو أمر يعتبر من وجهة نظر الوطنيين الإسرائيليين عن القدس غير مسموح به. إن الطريقة التي تحاول الدوائر بها تغيير النسبة الديمغرافية تتوافق بشكل تام مع لا عقلانية أهدافهم.

يرحل الفلسطينيون من بيوتهم على أساس تهم ملفقة وتصادر أراضيهم أيضاً، ويحرمون من حقوقهم المدنية، وهو الأسلوب الأكثر استعمالاً. في الآونة الأخيرة حدثني عن ذلك مسيحي فلسطيني يملك حانوتاً صغيراً للهدايا التذكارية قرب درب الآلام. فرغم أنه ولد هنا وعنده بيت يعود لعائلته منذ أجيال، لم يسجل على بطاقته الشخصية أنه يتمتع بإقامة دائمة. إنه يعيش هنا سائحاً، وعليه السفر كل ثلاثة أشهر ليحصل بذلك على الختم المطلوب، وبالتالي السماح له بالإقامة، إنه لا يريد حتى مجرد التفكير بالحالة التي لن يحصل فيها على الختم، إنه في وطنه ومع ذلك فهو

---

[1] صخرة حسب الكتاب المقدس صلب عليها السيد المسيح.

مجرد ضيف: ليس إلا، الأكثر مدعاة للحزن هي الحالة التي يرحل الفلسطينيون فيها إلى الشارع مباشرة. يكفي أن يأتي المستوطنون بوثائق عقد شراء بيت مزورة ليقوم البوليس الذي يرافقهم بالواجب، ولا يحتاج المستوطنون في حالات كثيرة لمرافقة مسلحة، إذ يكفيهم الانتظار لحين ابتعاد العائلة الفلسطينية عن بيتها، ليقوموا بأنفسهم بالسيطرة عليه، الصراع على البيوت في المركز التاريخي للقدس احتدم إلى حد أن الفلسطينيين أصبحوا لا يغادرون منازلهم دون بقاء أحدهم للحراسة. هكذا وباستمرار، يتصرف اليهود المتطرفون الذين لا يحنون رؤوسهم للقوانين العلمانية، فالقدس عندهم هدية إلهية، وهم ببساطة قد أتوا لأخذها. وإذا احتجّت عائلة عربية، فهم أي المستوطنون يستطيعون الاعتماد على وقوف القضاء الإسرائيلي إلى جانبهم، يكفي مثلاً الاتهام بأن الفلسطينيين لم يدفعوا قبل ثلاث سنوات فاتورة الكهرباء أو الماء، وحتى إن لم يكن ذلك صحيحاً فأنّى لهم إمكانية البرهنة على ذلك.

أتوجه نحو جولجوتا (الجلجلة) قبل الآخرين، لأن تعميد الإيطاليات المؤمنات يطول، الصخرة التي قتل عليها المسيح كانت في وقت ما خلف أسوار المدينة لكن القدس قد توسعت لدرجة أنها قد ابتلعتها لداخلها تماماً، تقع كالفارية وهو اسم آخر يستعمل اليوم للإشارة إلى الصخرة في مركز المدينة تقريباً، إنه اسم غير عادي اكتسبته الصخرة بفضل شكلها، الذي يذكر بالجمجمة، ومعرفة إلى أي مدى يعبر هذا الاسم عن الحقيقة أصبحت مسألة لا يمكن التأكد منها، لأن الصخرة محاطة بجدران الكنيسة لقد دوخ هذا الاسم رؤوس فناني العصور الوسطى الذين رسموا معاناة المسيح إلى حد أنهم عوضاً عن الصخرة رسموا في كثير من الأحيان جمجمة إنسان حقيقية تحت صورة الصليب مع المخلص.

أقف أمام الهدف، تفوح من أبواب الكنيسة اليوم تلك الرائحة غير العادية والتي أعرفها جيداً من بيت لحم: الهواء الثقيل المشبع بخلاصة قناديل الزيت، الشموع المحترقة ودخان أوعية البخور. تفتقد كنيسة القيامة بشكل كامل إلى فخامة الكنائس الكاثوليكية الرومانية، فهي تعج بالروائح الفواحة بدل الذهب والأبهة.

لا أستغرب حالة من خاب ظنهم لدى زيارتهم الأولى للكنيسة، إن قدسية المكان لا تكمن في المساحات الواسعة المليئة بالزخارف، لكن بالاحترام الذي يحمله الناس عند دخولهم إليها، وهكذا هو الأمر هنا.

يجب على الزوار الذين يدخلون القدس ويتوقعون جمالاً خارقاً للعادة، أن يتذكروا بشكل جيد، أن الوصول الظافر للمسيح في وقت قد خلا كان تحقق على ظهر حمار وحسب، لكن أولئك الذين لا تقودهم آلات التصوير يدركون الأمر بشكل جيد.

لقد نهبت ودمرت كنيسة القيامة أكثر من مرة عبر مئات السنين، ولهذا فإن مظهرها المعاصر قد تشكل عبر إصلاحات وترميمات متتالية ليس لها نمط موحد، إنها خليط من نقوش فنية، وعدد من الحجرات والمغارات والكنائس مرتبطة في وحدة كاملة تقوم على قطعة أرض ذات مستويات كثيرة التنوع، يغطيها سقف واحد، تجري تحته الصلوات المكتوبة بحيث تضيع أصواتها بشكل تام. ولهذا يمكن خلالها سماع صوت الأجراس الآتية من نقطة قبر المسيح.

يتهيأ الرهبان الأرمن لإقامة الصلاة، وهذا يعني أن الكنيسة الصغيرة التي هي فوقهم ستكون مغلقة لفترة قصيرة.

أذهب قبل أي مكان آخر إلى الصخرة التي يمكن الدخول إليها عبر درجات شديدة الانحدار تقع عند مدخلها مباشرة، الدرج ضيق جداً لهذا يجب على الطليان، الذين قد وصلوا للتو، ترك الصليب أمام مدخل الكنيسة والدخول من دونه، على كل حال تتوجب إعادة الحج إلى بداية درب الآلام، وبعد مضي وقت قصير تؤول إلى يدي رجل مؤتمن، يحملها إلى هناك حيث ينتظر بالتأكيد سياح آخرون.

ليعيشوا هم أيضاً بعضاً من آلام ذلك الدرب الذي لا يعيره المحليون انتباهاً.

لقاء ليلي

المبيت في المدينة القديمة قرب كل تلك القيم الأثرية له جاذبية من الصعب التغلب عليها. لقد أسرني الحج عبر القدس ومحيطها، إلى درجة أنه أخذ مني وقتاً طويلاً حيث لم أعد إلى غرفتي في الفندق إلا بعد الظهر، كنت قد خططت سلفاً لقيلولة قصيرة، لكن التعب قد فعل فعله فغفوت حالاً بعد استلقائي على السرير، لا أدري كيف حدث ذلك، إذ لم أستيقظ حتى المساء.

خف زحام الشوارع خلف الأسوار، وأغلقت الكثير من المتاجر أبوابها منذ فترة طويلة. السياح عادوا إلى أماكن إقامتهم مع قدوم الليل، ولهذا لا أصادف وأنا في طريقي من الفندق إلاَّ السكان المحليون فقط، وبداخلي أقول يجب عليّ الاتصال بميشيل هاتفياً... إن غفوتي الطويلة تلك قد فوتت عليّ فعل ذلك، تجولت لبضع دقائق، ثم توجهت نحو أقرب محل للوجبات السريعة ليس بعيداً عن بوابة دمشق.

لم أر ميشيل فترة طويلة منذ أن انتهينا من المدرسة، آخر مرة التقينا فيها كانت عند شباك تجهيز المسافرين للإقلاع، العام قبل الماضي، ليلة طيراني من مطار تل أبيب عائداً إلى بلدي، كان لقاء غير عادي حقاً، وفوجئت هذا العام أكثر، حينما التقيته في الليل من جديد، لكن هذه المرة في مطار براغ، متجهين في نفس الساعة واليوم والشهر إلى تل أبيب، ليس غريباً أن نجلس متجاورين على متن الطائرة، وعند وصولنا قلت له: سيكون من الخسارة ألاّ نلتقي مرة أُخرى، في مكان ما خارج المطار في القدس مثلاً، حيث يدرس الآن.

بينما أقف في طابور شراء الفلافل، أفكر لمن سأتوجه بالسؤال عن المكان الذي يمكنني إجراء اتصال هاتفي منه، فأنا لا أرغب في العودة إلى الفندق، يقف فلسطيني أمامي يبدو أنه لا يتوجه إلى أي مكان فهو يسير ببطء.

ولهذا سمح لي بتجاوزه، وأنا أغتنم الفرصة للحديث معه، لأتأكد من مكان وجود هاتف عمومي أتصل منه، فأجاب: «لا يوجد هنا مركز للهاتف، لكن بإمكانك الاتصال من عندي» بنفس السرعة التي يجيب بها يدخل يده إلى جيبه الذي يحمل فيه هاتفه الجوال.

لا أريد استغلال أريحيته، ولهذا أفضل الادعاء أنني أريد الاتصال بالخارج. «يوجد جهاز هاتف يعمل بقطع العملة المعدنية.. هناك في الجهة المقابلة في دكان بيع السجائر» أشار نحو زقاق معتم، كنت قد عبرته خلال النهار في طريقي إلى حائط المبكى، «المكان ليس بعيداً». كل ما في الأمر أننا قد تبادلنا بعض الكلمات لكن نسيم كما قدم نفسه لي، يريد تغطية ما قد دفعته، وأنا لا أعلم إن كان ذلك تعبيراً عن الضيافة العربية، أم محاولة لتوليد انطباع لدى أجنبي ربما يعتقد نسيم أنه لا يحمل عن الفلسطينيين تصوراً سيئاً، أرفض لكنه يؤكد لي بأن لديه اليوم سبباً للاحتفال والاستضافة، فلقد وجد أول عمل له، وهو يبلغ اليوم التاسعة عشرة من عمره.

لم يكن ذلك أمراً سهلاً على الإطلاق كما أوضح لي، إنه ينحدر من القدس الشرقية، وهذا الأمر يعد مشكلة بحد ذاته من الصعب تجاوزها في إسرائيل كما يقول. إضافة لذلك فهو ينتمي لجيل قام بقذف الحجارة على الجنود الإسرائيليين، وقد دفع هذه الحقيقة غالياً. لقد حكم عليه بالسجن مدة عامين «لتهديده أمن الدولة»، حينها لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعدُ، إذن مدرسةٌ لم يكملها وسِجلٌّ جنائي كلاهما أضعفا إمكانية حصوله على عمل أكثر إلى أن عرضت عليه السلطة الفلسطينية عملاً يجب البدء به الأسبوع القادم. لم أفوت إمكانية السؤال أين سيحصل على ما سيدفعه للهاتف، وقبل أن يتبادر لذهني أنه ليس سؤالاً تكتيكياً تكلم عن أبيه الذي يمده بمصروف للجيب.

حدثني في أثناء تناولنا الساندويش وشراب الليمون عن ظروف السجن، لقد صمد رغم الجوع الذي سببه له نحولاً، إذ فقد من وزنه نحو عشرين كيلو غراماً، لكن الأسوأ كانت مسألة مياه الشرب.

لقد كان المراقب العسكري «يسليهم» مرتين في الأسبوع وبانتظام، وكما يقول: وعلى الرغم من أن العساكر يعرفون كيف يضربون بشكل لا يسبب جرحاً، فقد فشلوا في إحدى المرات، ولهذا وجب إدخاله إلى المستشفى العسكري لمدة شهرين.

كلما أَوْغَلَ في التفاصيل أكثر لا أفهم السخط الذي استقبل به الناس قرار المحكمة بمنع تعذيب السجناء، لكن المحكمة كما يوضح عادت وسمحت به بعد عام اعتماداً على القانون المحلي، إن قرار المحكمة العليا في حينه الذي جاء رد فعل للانتقادات

الخارجية وانقسام الرأي في المجتمع، لم يكن حاسماً، إنه يذكر على الأغلب بحكاية الذئب والحمل، لأنها قد ضمنت قرارها، بأنه يمكن استعمال العنف لدى الاستجواب، وذلك في حال قدم المحققون الذين يمارسونه مبرراً لذلك.

«في المقابل يمكنهم إلقاء القبض علينا في أي وقت، ويمكنهم إدخالنا إلى السجن من دون محاكمة لمدة قد تطول أعواماً، والآن يوجد في السجون الإسرائيلية حوالي ست مئة فلسطيني، لم يقولوا لماذا يحتجزونهم»، ثم ينهي نسيم حديثنا بالصمت.

أَحْيَتْ هذه الكلمات ذكريات لي عن لقاء مصادفة مع سائق فلسطيني حدثني خلاله عن والده، لقد سجن لمدة سبعة عشر عاماً على أساس اتّهام ظنّي، بالتعاون مع الإرهابيين، وفي الحقيقة فقد تعلق الأمر بادعاء حتى يستطيعوا مصادرة أرضه التي تقوم عليها اليوم مستوطنة أرمون ناتسيف.

مع حلول الظلام يقل عدد المارة في مركز المدينة، يدلني نسيم على مكان وجود الهاتف، ويقول: سآتي بعد قليل، لقد وعدني أنه سيريني القدس من الأسطح، أتوجه نحو دكان بيع السجائر ولا أريد تصديق أن هذا الشارع هو نفسه الذي كنت قد اخترقته بصعوبة. إنه مساء جميل، تنتشر في المكان رائحة الفاكهة المنبعثة من الصناديق الفارغة، التي تركها الباعة وترمق القطط الحذرة أغطية الأقنية بنظرات مترقبة، يقظة، هذه القطط تشبه يقظة مجموعة من السياح أضلت طريقها هنا، وقد تقاطعت طريقي معهم قرب مركز الهاتف، بأي تهيب تتشد أجسادهم بعضها إلى بعض، هو مشهد يصل حد السخرية. تتشابك أيديهم بقوة وبعيونهم الشاخصة للأعلى، ربما يتوقعون هجوم «العصابات» العربية، بالتأكيد إنهم قد سمعوا من أفواه الإسرائيليين الكثير عنها.

اتفقت مع ميشيل على موعد عند بوابة دمشق، وإلى أن يحين موعد وصوله من القسم الغربي للمدينة لديّ ساعة من الوقت يمكن لنسيم أن يملأها، يفي ميشيل بوعده فيظهر في زاوية الشارع، وبقربه أوقن مقدار سعادتي لأنني في إسرائيل أقضي عطلتي فقط.

وراء الكواليس

يلاعب الهواء بلطف، اللافتات المرفوعة على شوارع القدس الشرقية التي هدأت حركتها، إحدى اللافتات تدعو الزوار بلغتين إلى المهرجان المسرحي الذي يعقد للعام

الثالث، وينظمه المسرح الوطني الفلسطيني، لا أتردد طويلاً؛ فأقرب مسرح من منطقة الشيخ جرّاح هو على بعد خطوات فقط من هنا، في الشارع الأول إلى اليمين مقابل محطة البنزين.

بعد مضي وقت قليل أقف أمام بناء فخم مكسو بكلس حي أبيض، لكن جوانبه غير المصانة والشبابيك المكسرة لا توحي بأن الأمر يتعلق بمظلة تحتضن الإبداع، قبل أن أعبر باب المدخل الجانبي أتجول متشككاً حول البناء. الشمس التي ترتد أشعتها عن الحائط الأبيض تضطر الإنسان للهرب بعينيه بسرعة، نحو ظلام ما خلف الأبواب المفتوحة، تنفتح أمامي مساحة واسعة من قاعة المتفرجين يضيئها باقتصاد شباكان لا زجاج فيهما، الفراغ ولون الإسمنت الرمادي المسيطر في كل مكان يبوحان بخجل بأن على هذا المسرح الانتظار بعض الوقت حتى يمكنه استقبال أول زواره.

عندما أنظر باتجاه خشبة المسرح تراني أتردد للحظة، لأن كواليس غريبة تنتشر على امتدادها، سكن من الكرتون العادي والنايلون والألواح الخشبية المضغوطة ثم ألواح خشبية عتيقة تتصل بقاعة المتفرجين كجسر بسيط ربط إلى جانبيه حبل علق عليه غسيل مشهد كأنه مأخوذ من أوبرا الشحاذين. أفكر بضع دقائق قبل أن أقرع الباب المتحكم بتلك الكواليس غير المألوفة، لكن الفضول أقوى من الحياء، أقترب أكثر عبر الجسر المتخلخل، لا يمضي كثير من الوقت فينفتح الباب فجأة «ما الذي تريده؟» سألتني امرأة ترتدي ملابس أفقر من غطاء كفن كان قد استعمل في وقت من الأوقات، وقبل أن أعثر على جواب أرى أطفالاً يحيطون بها. «هل أنا في المسرح؟» كان ذلك هو السؤال الوحيد الذي خطر ببالي في تلك اللحظة. «صحيح، لكن أحداً لا يمثل هنا» تجيبني المرأة التي يظهر من خلفها وجهان دقيقان لطفلين آخرين. «لم يمثل أحد هنا أبداً، بناء المسرح هذا يستعمل مخيماً للمهجرين، ونحن نسكن فيه».

لقد اتضح لي الآن أن مؤلف ما يجري من أمور هنا ليس أي كاتب درامي عالمي، بل الحياة، وخلال حديث قصير تتكشف لي خفايا حياة هؤلاء الفلسطينيين، الذين لا يريدون بالرغم من كل شيء التخلي عن موطنهم الذي هو بالنسبة إليهم مدينة القدس، عاصفة المشاعر التي تلف شوارع القدس بشكل سري رحّلت ثلاثاً وعشرين عائلة

عربية إلى هذا البناء الذي لم يكتمل بعد. إنهم يعيشون أعواماً على الأمل الذي تتم تغذيته بصعوبة، وينتظرون ليروا كيف سينتهي بهم الأمر. القدس هي إحدى أكبر العقبات على طريق الحل النهائي، التي يتوجب على الإسرائيليين والفلسطينيين تجاوزها، ففي حين يعتبر الفلسطينيون جزأها الشرقي عاصمة لهم، فإن الإسرائيليين لا يريدون ترك قسمها العربي. وفي سبيل ذلك يقومون بعمل كل ما هو ممكن، بالإضافة لمصادرة الأراضي، وتجهيز المستوطنات، واستمرار الاستيطان، وهدم البيوت، يستعلمون أساليب لا نهاية لها، بهدف تخفيض عدد السكان العرب في القدس الشرقية. أملاً بإعادة المدينة لإدارتهم التامة بالرغم من أن اليهود يشغلون ألفي بيت فقط من أصل ستة وثلاثين يشغلها الفلسطينيون في هذا الجزء من المدينة، أقف الآن وجهاً لوجه أمام ضحايا الممارسات التي تقود إلى قلب النسبة المختلة وبداخلي أتساءل: أين ضاعت العدالة؟ وأين ضاع الضمير والشعور مع الآخرين؟ هؤلاء الناس لم يفعلوا ضد إسرائيل شيئاً يستحق العقاب، ذنبهم فقط أنهم قد ولدوا هنا في موطنهم القدس، ومع ذلك فقد عوقبوا بشكل أقسى من نزلاء السجون، فالسجين يعود لمنزله بعد انقضاء محكوميته، أما هؤلاء الفلسطينيون فقد عوقبوا بفقدان بيوتهم وحقهم فيها.

تروي لي الأم الفلسطينية من على خشبة المسرح، قصتها، التي بدأت قبل عدة سنوات في حيّ وادي الجوز في القدس، بيتها كان يقوم هناك وفي يوم من الأيام أتى الجنود وطردوها منه مع عائلتها ثم هدموه، وفي مكانه تقوم اليوم مدرسة يهودية، لقد بدأت هذه المرأة رحلتها من دون الأغراض الشخصية، من دون نقود، أو تعويض، خيمة فقط أخذتها من منظمات إنسانية نصبتها في مخيم صوان للاجئين، أولاً، ثم انتقلت إلى هنا بعد أن سوت الإدارة الإسرائيلية هذا المخيم بالأرض عام 1997 لقد مضى على وجودها هنا ثلاث سنوات، دورة مياه مؤقتة ماء وكهرباء يسحبان من الجامع المجاور، جدران من الخشب المضغوط المكسو بالنايلون بدل الحيطان العادية، هكذا يبدو بيتها الحالي، الذي لا تمكن تدفئته في الشتاء حتى لا تلتهم النار ما تبقى لها من الأغراض، كيف سيجيب أطفالها حين يسألون أين بيتهم؟ ثلاثة منهم ولدوا في بيتها غير المكتمل، واحد ولد في المخيم وآخر هنا، ولأن الخيمة لا يمكن أن تسجل على الوثائق كمكان

للولادة فإن ولدها الرابع لا يملك أوراقاً تثبت وجوده، إنه بالنسبة لموظفي الإدارة لم يولد أبداً.

وماذا عن المساعدات للأطفال؟ ليست عنده إقامة دائمة، ولهذا لا مساعدات اجتماعية لهم، الشيء الوحيد الذي يعولون عليه هو معاش الأب الذي يحصل على عمل موسمي في البناء، المسرح مملوء بقصص مماثلة، إحدى العائلات أقامت «مسكناً لها» عند الحائط مدخل حفظ الملابس وتعيش هنا منذ أربع سنوات، وبالرغم من أن أولادها الستة قد ولدوا في القدس فإن الدوائر الإسرائيلية، في إطار تخفيض عدد السكان غير اليهود، ترفض تأكيد ولادتهم، وماذا عن المساعدات المخصصة للأطفال؟ ليست لديهم مواطنية القدس، ولهذا لا يحق لهم استلام أي شيء من الخزينة، لكن ماذا عن عائلة أخرى لديها خمسة أطفال يحملون المواطنية، وما يرتبط بذلك من حق بالمساعدة الحكومية؟ لقد حرموا منها بأعذار أخرى فوالدهم يتحدر من مدينة رام الله. الوثائق تقول: إنهم قد ولدوا في القدس، وإنهم يعيشون فيها، ويذهبون لمدارسها، وقد جرى تطعيمهم هنا أيضاً، ومع ذلك، كل هذا لا يعني للدوائر شيئاً، فهي تقول: يجب عليهم الانتقال إلى رام الله حيث ارتبط والدهم بزوجته قبل خمسة عشر عاماً.

أدرك الآن قيمة القدس، أدرك مدى استعداد طرف لاقتراف أي شيء من أجلها وأدرك كم أن الطرف الآخر مستعد للصمود فيها، لقد أصبح واضحاً لي الآن من الذي سيخرج منتصراً من هذه المعركة، يكفي سؤال الأطفال، لا يتصور أي منهم مستقبله في المخيم أو في السكن غير المكتمل، أحلامهم بعيدة عن واقعهم المحزن، وعندما أسأل الفتيات الصغيرات أين يردن العيش في المستقبل؟ يجبن من دون تفكير في عمان، يقال: إن الحياة هناك أسهل.

أغادر المكان، لأول مرة في حياتي يرافقني الأسف لدى خروجي من المسرح، يزوِّد أحد التجار، سيارته المرسيدس، بالوقود، في محطة البنزين. وعلى زجاجها الخلفي، ملصق مكتوب عليه، «القدس لنا».

ما الذي تمكن إضافته؟ كل شيء يؤكد أن هذا الأمر سيصبح حقيقة.

مساء 2001 في سيتي غاردن

توقفت النوافير الموجودة في باحة المركز التجاري عن الحركة، لقد تهاوت قمة الماء المندفعة للأعلى، بينما قامت الأضواء الملونة الساطعة من القاع بإضاءة المساحة المائية، توقف النافورة هذا يحرض المرء على تبريد بعض أصابعه بأن يحركها في الماء ليولد بعض الموجات الصغيرة، سكنت حركة النوافير تماماً فلا يجب تعكير صفو هذا المساء، ولنفس الغرض أطفئت ناضحات الماء أيضاً، ليمكن بشكل جيد الاستماع للنغمة الإيقاعية التي تتردد في القاعة.

تعزف المجموعة الموسيقية التي تتألف من خمسة أفراد أفضل ما تتقن لزوار سيتي غاردن، أما الناس الجالسون إلى طاولات المقهى المنتشرة بشكل دائري حول النوافير فيثمنون ذلك بشكل لائق، يلي كل معزوفة تصفيق فتؤدي الفرقة المزيد من الألحان، يسود في المركز التجاري وسط تل أبيب جو هادئ في مساء احتفالي.

ستغلق المحلات أبوابها باكراً، فقد حان وقت الراحة، بعد التبضع الذي دام طيلة النهار، ليس صعباً نسيان المشاكل العادية والتحلل من المتطلبات اليومية أمام فنجان قهوة وقطعة من الكاتو، وقليل من الموسيقا الهادئة.

ليس دونما سبب رفعت الأعلام الحكومية إلى جانب مصابيح المدينة خلال الليل، فالاحتفالات بيوم الاستقلال الذي يقترب، يتوافق مع عيد الفصح اليهودي، ثلاثة وخمسون عاماً مضت على إعلان الدولة المستقلة. أما ذكرى التخلص من العبودية المصرية فإنها تعزز معنى هذا الاحتفال. المحافظ المخصصة للتبضع والمملوءة بالهدايا تتكئ على أقدام الطاولات، وتري النساء معارفهن كيف تبضعن بشكل جيد، ويعبر الجميع عن الرضا، لقد كان اختيار البضائع متيسراً لكثرتها، ولأن كل متجر كبير نسبياً، أعلن عن تخفيضات على العطور الفاخرة والملابس، ولا يمكن لأحد إغفال أن تقليد اللوازم المنزلية الشرقية قد أصبح دارجاً، فمنها البورسلان، والشراشف اليابانية، والمزهريات الفيليبينية، الحصير الكوري، وكذلك الزخارف الخشبية التي توضع على الطاولات، من إندونيسية.. كل ذلك تمكن رؤيته في واجهات المحلات، ولا يقتصر الأمر على الأدوات المنزلية فقط.

إن هؤلاء الموسيقيين هم جيدون فعلاً، يكفي أن يبدؤوا حتى يتفاجأ المرء بكم الأرجل التي تنخرط في التفعيل، امرأة في عمر ناضج وقبعة أنيقة ترقص مع ابنها بين الطاولات، وحتى الأب الذي يمر من حولهم جاراً عربة أطفال يستسلم للأداء، كان خلال اقترابه يهز بخاصرته يميناً ويساراً، ويحرك رأسه صعوداً وهبوطاً، وكأن المكان قد خلي له وحده، الشكليات تركت جانباً فاليوم عيد.

يجمع البائع في الدكان المجاور الصحف وعلى الصفحة الأولى لإحداها صورة لامرأتين فلسطينيتين، التقطها المصور كما يبدو لهن وهن ينقلن بعض الأغراض التي لم تدفن تحت أنقاض دمار منزلهن، اليوم دمر الجيش الإسرائيلي 28 منزلاً في مخيم خان يونس للاجئين، ربما يتذكر أحد الحضور الآن، الجنود الذين لا يستطيعون حتى في مثل هذا اليوم البقاء في بيوتهم، واليوم ربما تخاف إحدى الحاضرات هنا على ابنها الذي يخدم في الجيش، وحتى في هذا المساء العادي تحلق الطائرات فوق غزة من جديد.

في الطريق إلى يعبد

يخفف محمد من سرعة السيارة ويشير بيده إلى السائق القادم من الاتجاه المعاكس كي يكبح مكابح سيارته، يقف الاثنان متجاورين ثم يفتح الرجل القادم من الجهة الغربية شباك سيارته، مرافقنا يسأله: «هل يوجد هناك جنود؟»..

«لا يمكنكم الاستمرار حتى الحدود» يجيب السائق المجهول، وبعد التحية يضغط على دواسة البنزين لكي يغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن. يوقف محمد السيارة ويرفع مكبح اليد، وبالرغم من أن ما قد تبقى حتى الحدود ليس بالكثير، ولكي يبرر عدم استعداده للاستمرار أكثر، يقول بمجاملة «أيكفيكم إلى هذا المكان؟» على أية حال كان أكثر من لطف منه، أنه نقلنا للمكان الذي نحن فيه. فلقد أمضينا الكثير من الوقت، لنعثر على من يوصلنا، وهو الوحيد، الذي لم يرفض طلبنا، يشير محمد عبر الزجاج إلى اتجاه ما نحو منخفض. «أترون تلك الطريق؟ سينتظر عليها هناك سائق تاكسي فلسطيني». وقبل أن يغلق الباب من ورائنا يتمنى لنا التوفيق، بالتأكيد أننا سنحتاج ذلك السائق، وبالسرعة نفسها التي خرجنا بها من السيارة يضغط محمد على دواسة البنزين،

وبلحظة يغيب عن الأنظار، لم يبق لنا إلا أن نستمر على طريقتنا الخاصة، وقبل كل شيء بمخاطرتنا الشخصية.

لن يكون الأمر معضلة كبيرة بالنسبة إلي، فأنا أحمل جواز سفر تشيكياً، وصديقي يحمل جوازاً إسرائيلياً، وبصفته هذه يخاطر على الأقل بدفع غرامة كبيرة، كل شخص يحمل هذه الجنسية اليوم، ويحاول الدخول للضفة الغربية بشكل يخالف ما هو محدد، تتهدده مشاكل مع الدوائر ليست بالقليلة، ونحن لا نفكر حتى بخطر التعرض لإطلاق النار مصادفةً، من جانب مطلقيه المنتشرين هنا. لا توجد طريق أخرى، دوريات التفتيش على المعابر الرسمية تعيد الجميع بلا رحمة، فالأراضي الفلسطينية مغلقة بشكل محكم منذ بضعة أشهر.

نضيع لفترة قصيرة بين الأشجار، أعتقد أننا قد اجتزنا الطريق، ولهذا نعود ونحاول من اتجاه آخر، تخشخش الحشائش الجافة تحت أقدامنا، من وجهة نظر أوروبي يبدو أن الضيف يتبع فصل الشتاء مباشرة قبل الربيع، وشمس نيسان (أبريل)، تحرم البلاد من الخضرة، فبينما تبدأ الحشائش بالجفاف تدريجياً، تكتسي أشجار الزيتون بأوراقها الفتية.

يظهر أخيراً بين الشجيرات الصغيرة رمل حجري يؤشر للطريق، نرى الآن هيكلاً أصغر لسيارة أجرة على وشك التحرك . بعكس رغبتنا . باتجاه الحدود، الأمر الذي يثير امتعاضنا، توحل أمطار الشتاء الأرض لذا يصبح من الصعب السير عليها.

ومن حسن حظنا أن السائق يلحظ أننا نلوح بأيدينا فيتوقف: «أين تريدون الذهاب؟».

«إلى يعبد»..

«للأسف، فأنا ماضٍ نحو اتجاه آخر، نحو مدينة جنين، على كل حال يوجد جنود حول مدينة يعبد، ومن الصعب عليكم الوصول إلى هناك».

يبتسم السائق ويهز كتفيه ثم ينطلق من جديد، ما العمل الآن؟ من الخسارة أن نتراجع عن هدفنا ما دمنا قد وصلنا هنا، نسمع صوت مكابح قبل أن يخطر على بالنا أي شيء، يتوقف سائق سيارة أجرة على بعد عشرين متراً منا، ويفتح الباب، أصبح واضحاً لنا الآن أننا سنصل إلى يعبد، ولذلك نتجه بسرعة نحو السيارة.

«أتعطونني عشرين شيكلاً إن أوصلتكم إلى هناك؟» يسألنا سائق السيارة بشيء من عدم الثقة وقليل من الضيق، الناس في الأراضي المحتلة معتادون على الحساب بشكل مختلف تماماً عن هؤلاء في إسرائيل.. بل نعطيك أكثر.

تم الاتفاق على الأجرة وبإمكاننا الصعود إلى السيارة، كان بانتظارنا آخر مقعدين بداخلها، في الحافلة عشرون مقعداً، كان بقية الركاب من الضفة الغربية ما عدانا وجميعهم عائدون من العمل.

من الأساليب التي تستخدمها إسرائيل لإحكام رقابتها على الأراضي الفلسطينية فرض التبعية الاقتصادية، قلة فرص العمل والاقتصاد المخضع يفسر لماذا لا يبقى أمام الفلسطينيين أي خيار سوى عبور الحدود من أجل العمل، أما إذا كانت المعابر مغلقة، وإسرائيل تعلن الحصار، فإن حوالي مئة وعشرين ألف فلسطيني يصبحون بلا مورد، هذا العدد من الناس يعبر إلى أراضي «العدو» من أجل تحصيل لقمة العيش، والحصار الحالي مستمر منذ بضعة أشهر، وله هدف واضح: ضرب المقاومة المتزايدة.

أتأمل ركاب السيارة في طريقنا إلى جنين، ثمة امرأة مع طفلها والبقية كلهم عمال عاديون، ثياب متسخة، شعر غامق مغبر وعلى الأحذية غبار يشير إلى طبيعة عملهم، فإن يحصلوا على وظيفة أخرى غير العمل في البناء، هو بالنسبة لغالبيتهم، حلم لا يمكن تحقيقه، العمل الجسماني الشاق، الذي يقطعون من أجله يومياً عشرات الكيلومترات يبدو أنه يتناسب بشكل مباشر مع عدد الأطفال في عائلاتهم، إنهم يجلسون بلا حركة، ويراقبون بنظرات ثابتة البلاد الشاردة.

يبدو كأنهم غائبون عن المكان، إنهم يرتاحون بالصمت، ربما يفكرون بعائلاتهم أو بالعمل أو كيف سيعبرون الحدود غداً من جديد.. لست أدري، وجوههم مترعة بالتعب والإنهاك الكبيرين، أكثر من أي شيء آخر يمكن قراءته.

عندما أوجه سؤالي ماذا سيحدث لو أنهم عبروا الحدود بشكل سري؟ أستلم هذه الإجابة «إذا كان الجنود آدميين، آدميين حقاً سيتركوننا نمر بسلام، لكن معظمهم يضربوننا وأحياناً يأخذوننا للسجن» يمكن لكل فرد من الفلسطينيين التكلم عن تجربته الخاصة.

يرى كل واحد منهم الحظ مثلاً بشكل يختلف عن رؤية الآخر له، فبعضهم يكتفي بالصحة، وآخرون بإيجاد عمل دائم، أو حتى على الأقل معبر غير محروس على الحدود. متطلبات القناعة هنا صغيرة ومتواضعة إلى درجة كبيرة، وللأسف فإنها هشة لدرجة أنه لا يمكن الحفاظ عليها، إنها مثل بيت من ورق لا أسهل من أن تنفخ عليه لينهار.

أصبح الهدف الرئيسي للشباب قبل أي شيء آخر، أن يكون الشاب مستقلاً، ولا يقبل الخضوع، وخيارهم هذا جاء لتجاوز نموذج معاناة آبائهم، واستناداً إلى تجاربهم الخاصة، لكن الحظ لن يحالف كل شخص يسعى لتحقيق مثل هذا الحلم، هلال وبلال توأمان في مدينة يعبد استطاعا رغم كل شيء تحقيق هذا الحلم. فلقد استدانا نقوداً وافتتحا في القرية التي نتوجه إليها الآن، مقهى خاصاً بهم.

ينزل الجميع من السيارة في جنين، وأبقى وصديقي مع السائق، الذي ترك السيارة لشراء سجائر من المحطة، أجلس على مقعد مريح أكثر جانب الشباك، يمكننا الاستمرار، ما زال أمامنا اثنا عشر كيلو متراً، وعلى الأغلب نقطة تفتيش عسكرية أيضاً، يشعل السائق سيجارته بعصبية.

الطريق التي نسلكها هي نفسها التي عناها بلال عندما أعلن بارتياح تام: «عندما سأتزوج سيحتفل بعرسي من جنين إلى يعبد». لكن ما يثير الأسى أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، وللزمن أحياناً مجرى لا يتماشى وطموح الإنسان، مرت حياة بلال منذ بدايتها بسرعة، وعرف حريته الشخصية لفترة قصيرة فقط.

بعد أن تفجرت موجة العنف في القدس العام الماضي، توسعت وانتقلت بسرعة إلى كل فلسطين، ولم تستثن يعبد.

وفي المساء قبل الأخير من شهر تشرين الأول (أكتوبر) أصابت طلقة بلالاً، «إنني جريح.. سلموا لي على أهلي» كان ذلك آخر ما قاله بلال لصديقه قبل أن يرتمي بين يديه ويسقط في مكانه صريعاً، لم يمر من الوقت الكثير حتى عرفت القرية بالخبر من المئذنة وهرع الجميع في الحال، هلال فقط هو من غاب، من لم يفقد صوابه من الأهل بدأ في البحث عنه في المقهى، لم يجدوه هناك فقد كانت مقفلة ثم انضم إلى البحث

عنه كل من استطاع، وجدوه في منتصف الليل قريباً من المكان الذي سقط فيه أخوه، لقد وجدوه صريعاً بطلقة في رأسه، ربما كانت مصادفة، ربما قدراً، وقد سقط في قريته وفي المناطق المجاورة أيضاً عشرون فلسطينياً حتى هذا اليوم كان من بينهم زوج شقيقتهم، لقد تجاوز عدد القتلى في كل فلسطين أربع مئة حتى هذا اليوم.

أي نهاية سيئة يمكن أن ينتهي إليها الطموح الإنساني، والتوق إلى الحرية، كيف يتحول الأمل إلى دمار، بأي قسوة بغيضة ونهاية مشوهة تتحقق الأحلام.. حلم بلال مثلاً، تحولت جنازة الشقيقين إلى مهرجان وطني، لقد سار آلاف الناس في الموكب الحزين على نفس الطريق التي كان من المفترض أن يمر بها موكب العرس من جنين إلى يعبد.

* * *

مهاودة من أجل السلام

تغيب الشمس عن شاطئ تل أبيب، إنه مغرب الجمعة، وبعد دقائق سيبدأ شابت (عطلة السبت)، لم يأت الكثير من السياح إلى إسرائيل هذا الصيف، ولهذا فإن أغلب من هم على الشاطئ من السكان المحليين، ومع ذلك لا يفوت أحد منهم هذا المنظر، إذ حالما تقترب الشمس من سطح البحر يجلسون ويتابعون بتركيز، كيف تغيب خلف الأفق، يخيل للمرء أنها لحظة ملامستها لماء البحر ستنز كعملة قد صُكّت لتوها، وألقى صانعها بها في حوض ماء بارد، حتى الثنائي خلفي، اللذان قد لعبا بالكرة حتى الآن، وكانت عيناهما منشدتين نحوهما فقط قد أوقفا اللعب، وحولا نظرهما نحو الغرب، أعلم ذلك جيداً، لأنني كنت تابعتهما طوال فترة لعبهما، لم أر منذ فترة طويلة، ثنائياً مولعاً باللعب مثلهما، كانا يضحكان فقط، أمّا العالم المحيط بهما فلم يكن له وجود.

لقد لعبا براحة وكأن الأحذية العسكرية الثقيلة التي يحتذونها لا تزن شيئاً برغم أنها كانت تتغرس بعمق في الأرض، في كل خطوة كانا يخطوانها، لكن ماذا عن السلاح الرشاش الذي يحملانه على ظهريهما؟

في غمرة هذا الانشراح يحملانه بخفة كما يحمل الطير جناحيه، وبنفس الروح لم تعر الفتاة اهتماماً بحقيقة أنها ترتدي بدلة عسكرية بدلاً من الملابس الأنيقة. غابت الشمس ونهض معظم من هم على الشاطئ، فقد انتهى المشهد وحان وقت العودة إلى البيت، أما أنا فأبقى لفترة قصيرة محدقاً باللَّطْخة البرتقالية على سطح البحر، وهي وحدها كل ما تبقى من هذا المشهد، لن تستمر بالتموج طويلاً، بل ستندثر في الأمواج، كم من الناس يا ترى ينظرون بالاتجاه نفسه؟ من مقاهي الشاطئ، وغرف الفنادق، ومن السيارات المارة، بل وربما من المرتفعات غير البعيدة في الضفة الغربية.. من يدري؟..

«أرغب مرة برؤية البحر عن قرب وبالاستحمام فيه»، هذا ما أسرّ لي به إسرافيل منذ وقت قريب، وإسرافيل يعرف البحر من القمم الواقعة بين فلسطين 48 و67 فقط، لم تتح له في أي وقت فرصة اجتياز بضعة كيلو مترات تفصله عنه، ولا إمكانية تحقيق رغبته، ومثله كذلك الذين يعيشون في أراضي الضفة الغربية المحددة بإحكام، التي

يصعب السفر عبرها والأصعب من ذلك مغادرتها، لم يبق له إلا أن يستمر في النظر إلى البحر من القمم، من الصعب على المرء أن يعيش مشاكل الآخرين.

لقد شد انتباهي في أول لقاء لنا اسمه أكثر من معاناته الحياتية، إسرافيل هو اسم ملاك الموت، الذي عليه حسب القرآن إماتة كل شيء حي، قبل يوم القيامة، ولكي يأتي ذلك اليوم يُنفخ في الصور. أما الصوت الذي يصدر عن هذا النفخ فيكون فظيعاً لدرجة أنه سيسبب فناء الجميع، لكن هذا الاسم لا يتطابق معه، أول ما يلاحظه الإنسان على إسرافيل هي ضحكته العريضة البادية عن بعد، لم أره مرة عابساً.

تضيء النيونات المطاعم المنتشرة على طول الشاطئ، وتمتزج آخر أشعة النهار مع الضوء المنبعث من المصابيح المضيئة. يمتلئ متنزّه الشاطئ ببطء بالناس المتلهفين لحياة اجتماعية أغنى، إنها عادة محلية فما إن يبدأ (شابت) حتى ترتدي تل أبيب كلها، ملابس العيد، وينزل الناس إلى الشارع غالباً نحو البحر، حيث تنتشر إلى جانب المقاهي الكثيرة تجارة نهاية الأسبوع، وعدد غير محدود من الباعة والفنانين، الكل يتمنى للآخر «شابت شالوم». وفي الحقيقة يوجد ما يمكن رؤيته على طول الكورنيش وأساساً ما يمكن صرف النقود عليه.

يلح الأطفال على حيازة البالونات والألعاب المنتشرة على الرصيف، وتختار الشبيبة الوشم المقلد، أمّا من كان غير راض فيختار التنبؤ بمستقبل أفضل من خلال قراءة الكف، لكن من أمضى أسبوعاً حافلاً بالعمل فيسلم جسده للآسيويين الذين يدلكونه على المقاعد مقابل عشرة شيكلات، ومن يرغب بالرقص يمكنه القيام بذلك في المتنزهات الخاصة، حيث يتوافر برنامج رقص متنوع، من تشاستوشك الروسية إلى فيفالدو وحتى الإيقاع الأمريكو لاتيني، ويكمل الشحاذون هذا التنوع الاجتماعي بخدمة تريح أصحاب الضمائر المثقلة، إذ يكفي إلقاء قطعة نقدية صغيرة داخل قبعة مقلوبة أو كرتونة صغيرة.

أتوقف في منتصف الطريق تقريباً، في أحد مراكز الراحة حيث يرسم شاب روسي صورة (بورتريه) لقاء خمسين شيكلاً، وهو ليس الوحيد الذي يقدم هذه الخدمة للمعجبين بأنفسهم، لكنه ينفرد بين كثيرين مثله بالرسم بالألوان.

ها هو يضع اللمسات الأخيرة على رسم إسرائيلية في الأربعينات من عمرها أوشك صبرها على النفاد، إنه باختصاصه رسام حقيقي يؤكد ذلك الاهتمام الكبير الذي يبديه المارة بعمله. يحيط بخشبته حشد كبير من الناس، بعضهم قد توقف مصادفة، وآخرون يريدون أن يرسمهم، لكن الفضول هو الذي دفع الأغلبية إلى التوقف، وذلك لمعرفة كيف سيكون رد فعل المرأة المرسومة، ولهذا السبب توقفت أنا أيضاً، من الواضح لكل من نظر إلى الرسم أن صاحبته ستتفاجأ وسترافقها مشاعر الرضا، لا غرابة في ذلك، فقد جعلها الرسام تبدو أصغر من سنها بعشرين سنة على الأقل، شعرها الذهبي السابل جعده على شكل تسريحة منتفخة، وأطراف فمها المتدلية حولها إلى ابتسامة، أمّا ما تحت الأجفان فقد منحها شرارة يافعة، أزال التجاعيد والبثور الدهنية تماماً، غطى منطقة الصدر المتدلي، الذي ربما كان قد بدا جميلاً في يوم من الأيام بلمسات غائمة زاحفة إلى ما لا حدود له، من الممكن لصوفيا لورين أن تتعرف على نفسها في هذا الرسم، أما هذه المرأة فلا، لكن ما علينا! ما دام الناس يقدمون بسرور فرصة لخداعهم. يضع الرسام نقطة بارزة إلى جانب توقيعه، ويبتعد عن خشبته، الرسم جاهز، تنزل المرأة عن الكرسي وتتجه بفارغ الصبر نحو الصورة (البورتريه)، الآن وقد وقفت على مقربة منه، وهو الواقع تحت ضوء المصباح مباشرة، أصبح من الواضح كيف تستطيع يد هذا الشاب الكذب. لكنه قد أنهى مهمته بشكل ممتاز، وحتى المرأة برد فعلها لم تخيب ظن الجمهور العابر مصادفة، تعجُّبها صادق، تصمت، لكنها تتنفس بعمق ثم تغطي فمها المفتوح بيدها، لا تدري ماذا تقول، تلمع في عينيها دمعات، ربما أنها تتذكر أيام صباها، عندما كانت في العشرين من عمرها، ثم تقف عابسة أمام هذه الأسطورة، اللذيذة، تعاينها بثقة.

لقد أعاد الرسام لها شبابها، خدمة مجانية، لكن كما يتضح، بعد مضي وقت قليل، فإن هذه المرأة، بسرعة، تستبدل ذكرياتها باعتبار واقعي: كيف ستساوم على السعر المتفق عليه مقدماً لن يشتري أحد غيرها هذا الرسم، أمّا الرسام فصورة امرأة غريبة لا تعني له شيئاً. إنها متأكدة من نجاحها في تخفيض السعر عشرة شيكلات، على الأقل، وهكذا فإنها تبدأ بالمساومة بثقة لا تتزعزع، لا أريد أن أكون شاهداً على مهانة هذا الفنان،

المضطر لبيع عمله مقابل ثمن لا يستطيع أن يشتري به حتى كأس بوظة من المقهى القريب، أتابع سيري باتجاه الطرف الآخر من الشاطئ.

هبطت العتمة بسرعة، وفي الطريق ألتقي ببائعي الذرة المقلية، وبائعات الأزهار والبوظة وغيرهم الكثير من الباعة والتجار، وبكل شيء «ضروري» لقضاء أمسية طيبة، اشتروا! اشتروا. هكذا يصرخ الباعة على كل شخص يُبدي إشارة استحسان لبضاعتهم.

أقف عند الدلفيناريا قرب نهاية الشاطئ، ليس بعيداً من يافا القديمة، هذا المكان كان يعج بالحيوية حتى ما قبل بضعة أشهر والمتنزه كان يمتد حتى هنا، لكن عملية تفجير جرت أوائل شهر حزيران (يونيو)، قد غيرت كل شيء، شاب فلسطيني فجر حزاماً حول جسمه، وقد سقط صريعاً مع 21 شخصاً، هدوء وصمت يسودان هنا اليوم، الناس يتجولون بتردد وفي الغالب يسعون للخروج من المكان بأقصى سرعة، القليل منهم يتوقف في مكان الحادث، الذي تراكمت عليه الورود لذكرى الحادث المأساوي، أتوقف أنا أيضاً.

ما الذي دفع هذا الإنسان لهذا الفعل؟ جنون كبير؟ أم اليأس وانعدام الأمل؟ لن نعرف ذلك.

على الحشائش وقريباً جداً من النصب الذي يضم أسماء الضحايا يجلس رجل حافي القدمين، ينظر إلى الأمام ساهماً، عيونه فارغة ومع ذلك يتكلم بوضوح.. من فقد هنا يا ترى؟ ابنته المحبوبة؟ ابنه الوحيد؟ يبدو قانطاً لدرجة أنني لا أجرؤ على سؤاله عن أي شيء، ولا أستطيع النظر إلى تلك العيون الفارغة.

وماذا عنك يا إسرافيل.. يا صديقي؟

حينما أراك هل سأتمكن من النظر إلى عينيك؟ هل سأستطيع التكلم معك؟ أخشى أنني لن أستطيع أيضاً، سمعت كيف أن الجيش هاجم قريتك هذا الأسبوع، من الأرض ومن الجو، ثم سمعت عن تدمير بيتك، شقيقتك ماتت، وشقيقك أيضاً.. أعرف أن أكثر ما ترغب فيه الآن أن تصرخ بوجه هذا العالم، وأن تملك إمكانية النفخ في الصور بلا تردد، لكن لا تنس أنك لم تر البحر بعد!.

كم من الأعين الفارغة سيزداد عددها هنا؟ كم من الأسماء سينقشها الحجارون على الشواهد؟ لا أستطيع التقدير.؟

لكنني متأكد من شي... إن أمهر فنان لن يرسم لكم السلام الذي يحظى برضاكم التام.

لا تنخدعوا بالأوهام الرخيصة، لقد دفعتم الكثير، لا تنتظروا الحصول على مهاودة، ولا تترددوا في الدفع، ما هو بحق عائد للآخر، اشتروا.. السعر يرتفع، أرجوكم اشتروا.

* * *

مستخلص

يتناول هذا الكتاب تصوير شريط المأساة الفلسطينية المستمرة بموضوعية، بقيام صحفي تشيكي بزيارة للأرض المقدسة، يلتقط صوراً حيَّة لمعايشات الفلسطينيين اليومية، يعرضها للعالم، و يحاول تشكيل الوعي العالمي حول الاحتلال، وبشاعته، بواقعية منطقية بعيدة عن العاطفة والشعارات والاستهلاك السياسي.

ويكشف انتهاك الديمقراطية وحقوق الإنسان يومياً لعرب إسرائيل العزل المسلمين والمسيحيين والدروز، في دولة مهاجرين تدعي الديمقراطية، ولا تجمعها لغة ولا ثقافة ولا تاريخ، وسط صحراء التسلط العربي الخالية من الحرية.

ويبين محاولة إسرائيل إعادة كتابة التاريخ لحسابها بتزييف أسماء نزلاء قبور المسلمين وسرقتها، وهدم القرى المسيحية، وإدخال عناصر يهودية اعتباطاً على الآثار الإسلامية وغيرها، التي تثبت على مر العصور عدم احتكار أي شعب أو عقيدة دينية واحدة لأرض فلسطين.

ويصف المشاهد اليومية المؤلمة لعرب الأراضي المحتلة بالقوة، وولادة أطفالهم المحكوم عليهم بالموت سلفاً، ولمدن تشرب مرة واحدة أسبوعياً، ولطرق الضفة المقسومة إلى جزر يصعب التنقل بينها، تكريساً للاحتلال، ومنعاً لتوسيع الدور العربية، ولقيام أي كيان فلسطيني، قام رغم كل شيء بسياسة التمييز العنصري الإسرائيلية المفتقدة كل حليف.

ويصور وعي الفلسطيني ذاته المتوارث عبر الأجيال منذ نكبة 1948، وحقيقة قضية نضال الشعب الفلسطيني الأعزل صاحب الحق المشروع تجاه ترسانة السلاح الهائلة، وأنها ليست نزاعاً بين طرفين على قدم المساواة مثلما تحاول الدعاية السائدة تصويره.

Abstract

This book describes the continuous Palestinian tragedy with full objectivity. It was the outcome of a visit to the holy land that a Dutch journalist made and took lively portraits of everyday life in Palestine. He reveals those portraits to the whole world and tries to give shape to the Arab consciousness toward the ugliness of the occupation through logical realism, which is far from emotion, mottos and political consumption.

It also reveals the Jews' violation of democracy against the unarmed Muslim, Christian and Druze Arabs in Israel, the State of the emigrants which claims democracy while neither language nor culture nor history unifies them amidst the Arab tyranny which deprives people of freedom.

The book reminds of Israel's attempts to rewrite history in favor of its own interests by changing the names of the deaths in Muslim graves and stealing the latter, destroying the Christian villages, inserting Judaic elements haphazard amongst the Islamic monuments and elsewhere, which will one day prove that Palestine is not owned by any particular people or religious belief.

It describes the daily painful scenes of the Arabs in the lands that were occupied by force and the bir4th of their children who are sentenced to death in advance, of townspeople who are unable to drink water save once a week and of the Western bank roads that have been divided into a variety of islands, which one finds it so difficult to shift among, for reinforcing the grip of occupation and preventing the extension of Arab buildings or the rise of any Palestinian entity, which has appeared to life despite all the policy of the racial discrimination of Israel which has lost all allies.

It portrays the Palestinian's inherited self-consciousness since the ordeal of 1948 and the reality of the unarmed struggle of the Palestinian mass – the owner of the legal right in the land – against the tremendous arsenal and confirms that it is not a dispute between two equal teams, which the prevailing propaganda is trying to portray.